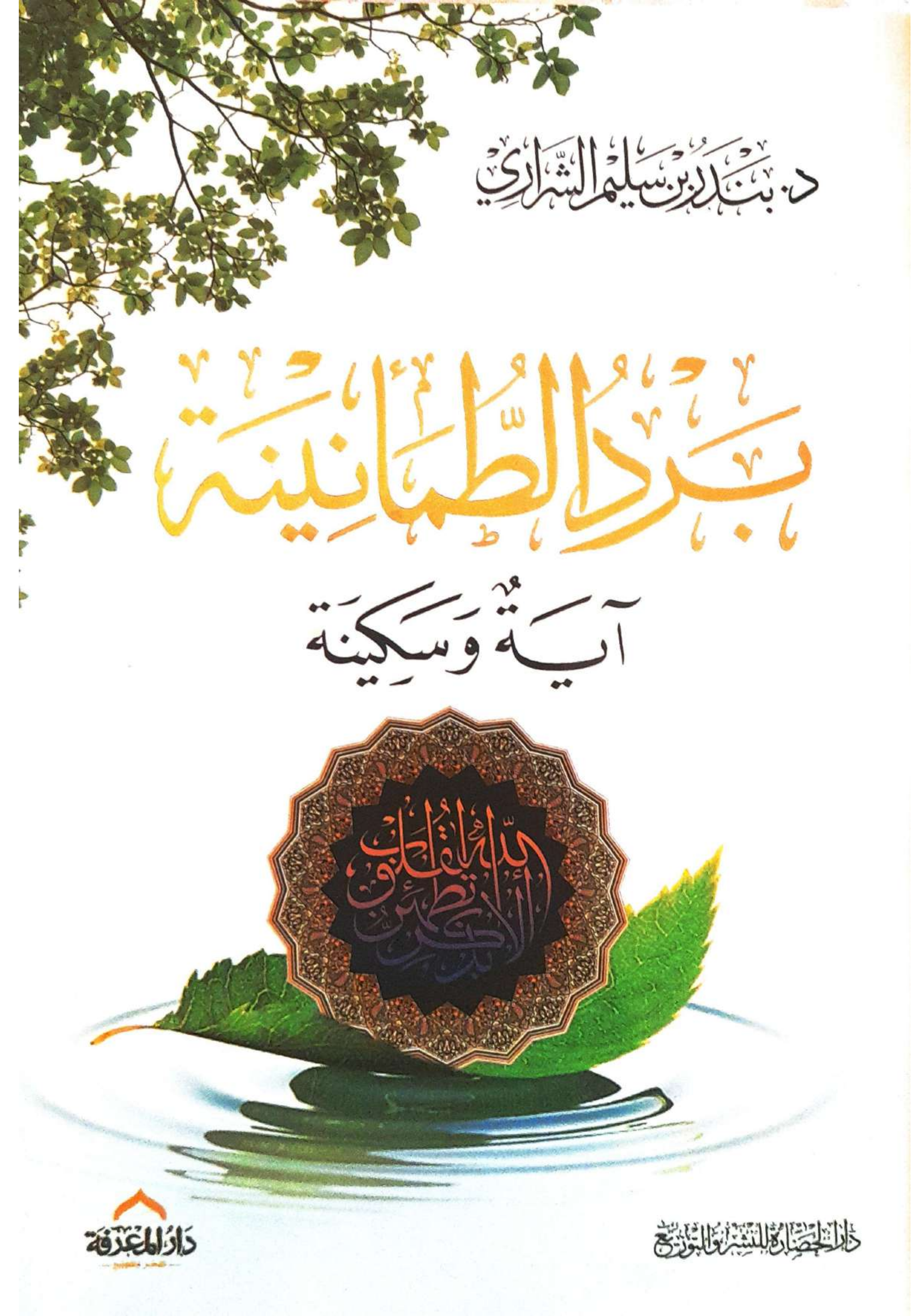

د. بندر بن سليم الشراري
برد الطمأنينة
آية وسكينة
ألا بذكر الله تطمئن القلوب
دار المعرفة
دار الحضارة للنشر والتوزيع

بَرْدُ الطُّمَأنِيْنَة

آيْةٌ وسَكِيْنَة

د. بندر بن سَليْم الشراري

الطبعة الثانية
١٤٤٢هـ/٢٠٢١م


بسم الله الرحمن الرحيم



المقدمة

الحمد لله الذي أنزل كتابه رحمة للعالمين، وطمأنينة للمؤمنين، وهدى للناس أجمعين، أحمده على نِعَمه الظاهرة والباطنة، وآلائه المتتابعة والمتكاثرة. والصلاة والسلام على رسول الله محمد بن عبد الله، الرحمة المهداة والنعمة المُسداة، وعلى آله وصحبه ومن ولاه، ومن استنّ بسنّته واتّبع هداه.

أما بعد، ففي ظلّ حياةٍ مضطربة بماديّاتها، ودُنيا تُربِك الكثير بتغيّراتها، وعيش الإنسان تقلّبات لا بدّ من مكابدتها، حتى تنسيه أين الطريق إلى الطمأنينة، وكيف تُطَلب دون أن يُغلب، وما الطريق للخلاص من حرّ الهموم، ولفح الغموم، وما في القلب من لظى الخوف من المستقبل المجهول-في ظلّ ذلك وغيره-جاءت فكرة هذا الكتاب ليكون بردًا وسلامًا على قلوب المهمومين، ونسيمًا حانيًا على أفئدة المحزونين، وبلسمًا شافيًا على جروح المنكسرين، وطمأنينة صادقة للناس أجمعين، هكذا أرجو من ربّ العالمين.

قد يشعر الإنسان بشيء من الاضطراب والارتباك، وعدم الانضباط في القدرة على التعايش مع ما حوله، ويسعى لطلب ما يُبعد ذلك الاضطراب ويجلب له الاطمئنان، فقد يطلبها بأسباب ماديّة يعيش بها طمأنينة مؤقّتة أو مغشوشة، وسرعان ما تزول هذه الطمأنينة كما هي عادة كلّ سلعة ماديّة، ثم يبحث عن سبب آخر وآخر، فيضطرب في طلبه الطمأنينة كلّ مرّة؛ لأنه طلبها من غير طريقها الصحيح.

ولا طريق يُسلك لطلب الطمأنينة أفضل من طريق القرآن لمعالجة اضطراب الناس في حياتهم، فمن طلب الطمأنينة من كتاب الله وجدها جليّة تنادي على نفسها -يجدها إذا تدبّره- بين ثنايا القصص والأحكام، ويقف عليها في آيات الوعد والوعيد، ويراها في مضرب الأمثال وسياق الجدال، يجدها في آيات، فيتذكّر أنه مرّ عليها كثيرًا، لكنه لم يتدبّرها ولو قليلًا!

إنّ الطمأنينة التي تُستَقى من القرآن طمأنينة رابحة لا خاسرة، صحيحة غير مغشوشة، من وجدها فلن يرضى ببدلها، كيف وقد قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨] وذِكر اللهِ أعظمُه كلامُه الذي أنزله على رسوله

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومَن عمل بكلام الله، فلن تضيق به الحياة.

وإليك نموذج من نماذج سلفنا الصالح وهم يطلبون تلك الطمأنينة من كتاب الله تعالى، قال عامر بن عبد الله: «قرأت ثلاث آيات من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ استعنت بهنّ على ما أنا فيه، فاستعنت بقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾[يونس: ١٠٧] فقلت: إنْ أراد أنْ يضرّني لم يقدر أحد أن ينفعني، وإن أعطاني لم يقدر أحد أن يمنعني، وقوله: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾[البقرة: ١٥٢] فاشتغلت بذكره عن ذكر من سواه، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[هود: ٦]، فوالله ما اهتممت برزقي منذ قرأتها، فاسترحت»[1].

وبعد، فقد رأيت الحاجة داعيةً لانتقاء بعض آيات القرآن، ثم الإشارة إلى ما في معناها من طمأنينة وسكينة، ليرزقني الله تلك الطمأنينة قبل أن أشارك بها إخواني الذين أرجو أن يجدوا فيها ضالّتهم، ويصلوا منها إلى غايتهم، وينالوا بها مبتغاهم.

---

(١) قوت القلوب، لأبي طالب المكي (٢/ ٧)

أقــول: انتقيت بعض الآيات؛ لأن الكتابة في كلّ آية تشـير إلـى معنى من معاني الطمأنينة تضعف دونها الهِمَم وتقصر قبل إتمامها القِمَم، ولا أبالغ إنْ قلت: إنّ في كلّ آية من آيات القرآن إشارةً إلى معنى من معاني الطمأنينة وذلك في منحى من مناحي حياة العبد الدينيّة والدنيويّة والأخرويّة.

واقتصاري على بعض الآي هو من باب الاكتفاء بالإشارة عن كثيـر العبارة؛ ولأنها آيات القرآن فكم من آية أشـارت إلى معـاني آيات، وكما قيـل: «يكفي من القلادة ما أحـاط بالعُنُق، ومن السِّـوار ما أحاط بالمِعْصَم»، ولعلّ هذه الآيات القليلة في العدد الكثيرة في الدلالة ترشدك إلى أصل معنى هذا الكتاب في الآيات التي لم تُذكر.

وربمـا وجدتَ أخي القـارئ أن هناك آيات لـم تُذكَر هي أولـى بالذِّكْـر مما ذكرتُه هنـا، فأقول: هـذا وارد، بل ولا بدّ أن يكـون، وذلك لأنّ أفهامنا ليسـت علـى قَدْرٍ واحـد، وانتباهنا للأشـياء ليس علـى نسـق مُتَّفـق، وحاجاتُنا وهمومنا ليسـت مشـتركة بيننـا مـن كلّ وجه، ولذلك قـد تتنبّهُ لمعنـى في آية لا أتنبّه له، وتدعـوك حاجةٌ وهمٌّ لتدبّر آية أخرى فتجد فيها معنى

لا يجده من يمرّ عليها مرور أكثر الناس، وهكذا كلّ تالٍ للقرآن ومتدبّر له، فإنه يقف أحدهم على دلالة وإشارة قرآنية لم يطّلع عليها من هو دونه أو أعلم منه، وذلك لنَعْلَمَ أن القرآن ليس لواحد دون غيره، أو لفئة دون فئة، بل هو للناس أجمعين.

ومثل هذه المعاني من كتاب الله، التي تظهر لك ولا تظهر لغيرك، أو تظهر لغيرك ولا تظهر لك، يُربّينا الله من خلالها على أنْ يتواضعَ بعضنا لبعض، وأنْ يستمع بعضنا من بعض، ولا يزهد أحدنا بما عند غيره، ولا يُعجَبُ ذو علم بعلمه فيقتصرَ على تحصيله بنفسه دون الاستفادة من أقرانه وإخوانه، ولو تتبّعتَ حال بعض أهل العلم في استفاداتهم لوجدت من يستمع لمن هو دونه في العلم في تفسير كلام الله وغيره، ويقرأ في كتابات من هو في طبقة تلامذته؛ لأنه يجد عندهم ما لا يجده عند نفسه أو عند غيره، وقد قيل: لا يَنال العلم مستكبر.

ويكفيك مما ذُكِر آنفًا أنّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ طلب علمًا عند الخضر ليس عند موسى، وموسى خيرٌ من الخضر، وأعلم منه، وأقرب إلى الله.



بين يدي الكتاب

جعلت خطّة مقـالات هذا الكتاب من فقرات ثلاث: آية، وطمأنينة، ومسك.

فجعلـت تحـت عنـوان كل مقـال الآيـة التـي تشـير إلى الطمأنينـة؛ لأنها أصـل ما بعدها من تطمينات، ولتسـتنبط منها الطمأنينة قبل أن تقرأ ما كتبتُ فيها.

ثـم ثنّيت بإشـارات، فيها -غالبًا- بيان ما قـد يجده بعضنا من اضطراب، وأردفتهـا بملحظ الطمأنينة التي ظهرت لي من الآية، مع شـيء من الاسـتطراد، وأُودِع ذلـك بعض التأمّلات التـي تظهـر لـي أثناء الكتابـة، فإن أصبـت فيها فمـن الله، وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان.

ثـم ختمت كلّ مقـال بفقرة مسـك، وهـذه الفقـرة متنوّعة المشارب، فبعضها آيات كريمات، وكثير منها أحاديث شريفات، وجزءٌ منها مما وقفت عليه عند السلف من مقولات، وقليلٌ منها -وهي أقلّها مرتبة ومكانة- ما سطّره أخوكم من عبارات.(١)

---

(١) قد تجد في طيّات هذا الكتاب عبارات -وهي يسيرة- ربّما مرّت عليك =

رحمة للعالمين

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

هي أول آية في الفاتحة[1]، أو هي آية تفتح بها سور القرآن، وهي الآية الأولى التي تجدها في كتاب الله، تنبّئك أنك ستقرأ كتابًا أنزله الله الرحمن الرحيم، رحمةً منه للعالمين، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨] والفضل: الإسلام. والرحمة: القرآن، كما قال ابن عباس.[2]

= قبل طباعة هذا الكتاب، فمن باب قول رسولنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنها صَفيّة»، وقول بعضهم: «رحم الله امرأً دفع التهمة عن نفسه»، فإن هذه العبارات كتبتها في بعض وسائل التواصل فنشرها محبّو الإفادة منسوبةً أو غير منسوبة، وربما نُسبت لغيري خطأ، رأيت أن أُدرج بعضها في موضعها المناسب لها في هذا الكتاب. والله من وراء القصد.

(١) اختُلف في البسملة، هل هي آية في الفاتحة، أو آية يستحب البدء بها عند قراءة كل سورة من أولها غير التوبة.

(٢) انظر تفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٩٥٩).

فالقرآن رحمة، والرسول الذي أُنزل عليه رحمة، كما قال الله تعالـى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبيـاء: ١٠٧]، والأمّة التي نزل عليها هـذا القرآن أمّة مرحومة، ولذلك فهي أكثر الأمم دخولًا الجنة.

إن المؤمن عندما يستفتح كتاب الله بهذين الاسمين، ويعلم أن كلّ اسـم يدلّ على صفة الرحمة، فإنـه يبدأ بقراءة كتاب الله وهو مستبشر مطمئنٌ بأنّ الذي يقرأ كلامَه هو الرحمن الرحيم.

لـم يقـل: (الرحمـن الحكيـم) أو (الرحمـن العليـم) أو (الرحمـن العزيز) فإنها لو نزلت كذلـك لدلّت الآية بمنطوقها على صفتين، الرحمة والحكمة، أو الرحمة والعلم، أو الرحمة والعزة، لكنه قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ليدّل كلُّ اسـم على صفة الرحمة، وذلك مبالغة في اسـتغراق هـذا المعنى في ذهن التالي والمستمع عندما يمرّان بأول آية من كتاب الله.

هذان الاسـمان يدّلان على صفة الرحمـة، إلّا أن بُنية كلّ اسم تـدلّ على معنـى ليس في الاسـم الآخـر، فالرحمن على وزن فعلان، والرحيم على وزن فعيل، والفرق بينهما أنّ اسـم الرحمن يدلّ على سعة الرحمة، واسم الرحيم يدلّ على إيصال

الرحمة، فالله واسع الرحمة وهو يوصلها إلى من يستحقها من عباده.

قد يكون الإنسان متّصِفًا بالرحمة، لكنه لا يستطيع أن ينفع من يرحمه، وأمّا الله فإنه واسع الرحمة، وهو يُوصل رحمته لمن شاء من عباده.

مسك: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِنَّ اللهَ لَمَّا قَضَى الخَلْقَ، كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»** رواه البخاري.[1]

***

(١) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧]، ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۝١٢٩﴾ [التوبة: ١٢٩] (٩/ ١٢٥).

سورة الفاتحة (فاتحة الكتاب)

اقـرأ فاتحـة الكتـاب، أمّ القرآن، تجـد أن في أوّلهـا ثناء: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، وذلك إخبارٌ من الله أنه يحبّ الحمـد، وهذا الإخبار متضمّنٌ معنى الأمـر بأنْ يحمده عبادُه؛ لأن الله إذا أحـبّ شـيئًا أمر به، وإذا أمر بشـيء فقد أحبّه، وهو سـبحانه المسـتحق للثناء والحمد، وكيـف لا يُحمد وهو ربّ العالمين!

ما الحمد؟

حقيقة الحمد هو وصف المحمود بالكمال والجمال، مع المحبّة والتعظيم والإجلال.

عندما تسـتفتح كتاب ربّك بهذا المعنى بتدبّر، فسيستقرّ في قلبـك أن هـذا الربّ عظيم حميد كريم رحيم؛ لأنه لا يسـتحقّ الحمـد إلا كريم مجيـد، ولا يأمرك به إلّا وقـد هيأ لك معرفته لتحمده على علم، ولذلك فقد عرَّفَنا الله بنفسه في كتابه بأسمائه وصفاتـه وآثار أفعاله، فإذا عرفته كما عرّفك نفسـه حمدتَه كما ينبغي أن يُحمد على وجه المحبّة والتعظيم.

فهو عظيم ومحبوب، وفي ذلك معنيان: هما القوة والرحمة، فعندما تأوي إلى عظيم يحميك، وحبيب بحمدك له يصطفيك، فليس وراء ذلك طمأنينة أعظم منها.

ثم تأمّل لمّا قال: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وفي الربوبية معنى العظمة، قال بعدها: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ليطمئن قلبك أيضًا أن هذا العظيم رحمان رحيم.

وتأمّل قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، ويومُ الدين هو يوم القيامة سُمّي بيوم الدين؛ لأن الناس يُدانَون فيه، أي يُجازون فيه على أعمالهم.

والله مالكُ يوم الدين ومالك الدنيا أيضًا؛ لكنه خصّ مُلْكَه ليوم الدين؛ لأنه اليوم الذي لا يَدَّعي فيه أحد أنه يملك شيئًا حتى أقلّ ما كان يملكه أحدنا في الدنيا كاللباس والنعال؛ لأن الناس يُحشرون يوم القيامة حفاة عراة.

أين الطمأنينة في ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾؟

عندما تعلم أن يوم القيامة لا مُلك لأحد فيه إلا لله، فإنك لن تبالي بكل ما فاتك من حطام هذه الدنيا، ولن تذهب نفسك

حسـرات علـى أي مظلمة تحصـل لك فيها؛ لأنـك تنتظر هذا اليوم الذي لا يملكه إلا الله، فيُؤتَى لك بكلّ حقّ فاتك في الدنيا وأضعافه بسبب صبرك وانتظارك.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، لم يقل: نعبدك ونستعين بـك، بل قـدّم الضمير ﴿إِيَّاكَ﴾ ليفيد الحصـر، أي لا نعبد إلا إيّاك، ولا نستعين إلا بك.

هـذا المعنى إذا تأمّلته فإنه يبعث في نفسـك العِزّة بأنك لا ترجو إلا الله، ولا تقصد في عملك إلا الله، وأنك منصرفٌ عمّن سـواه في تذلّلك وخضوعك، وهذا الشعور مع ما فيه من العِزّة فإنـه يبعث على الطمأنينة؛ لأن قلبك خـالٍ من غير محابّ الله تعالـى، فلسـت تبالي بمحـابّ الناس ورضاهـم، فأنت حينئذ غنيّ وقوي وعزيز، غنيٌّ بالله، وقويٌّ بالله، وعزيزٌ بالله.

مسك: قال رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ:** ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، **قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ:** ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، **قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ**

عَبْـدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، قَـالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، فَـإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ قَالَ: هَـذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ» رواه مسلم[1].

❋❋❋

(١) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (١/٢٩٦)

الموت على الإسلام حياةٌ بسلام

﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٣٢﴾ [البقرة: ١٣٢]

لماذا الخوف من الموت إذا كانت غاية المسلم من إسلامه نيل رضا الرحمن والفوز بأعلى الجنان!

الموت ليس نهاية، الموت بداية، هو بداية للحياة الأبديّة، وهو مرحلة في عمر وجودك، هذا هو الوصف الأنسب للموت.

خروجك من الدنيا القصيرة ليس بشيء عند مقارنته بدخولك في عالم سرمديّ أبديّ لا ينتهي.

وحياتك الدنيوية بالنسبة لحياتك الأخروية أشبه بومضة في عمر هذا الكون.

الموت باب لا بدّ من أن يدخله كل إنسان، لكن المؤمن إذا دخله فكلُّ ما بعده أهون منه.

الموت إذا نزل بالمؤمن تنزل معه البشارات والرَّوح والرَّيحان ورضا الرحمن، فيُهَوَّن عليه أمر الموت.

الموت على الإسلام حياةٌ بسلام، والحياة على الإسلام حياة باطمئنان.

موت المؤمن انتقال من ضيق إلى سعة.

ومن حياة الكَبَد إلى نعيم الأبد.

ومن الهموم والأحزان إلى رَوح وريحان.

ومن سجن الدنيا إلى جنة المأوى.

ومن دار العمل إلى مستقر الراحة.

غدًا تُنصب في الجنة منابر من نور وكراسٍ من ذهب، وكثبان من مسك، ليجلس عليها المؤمنون ليروا ربّهم ذا الجلال والإكرام.

واعلم أنه ليس هناك نعمة على العبد أعظم من الإسلام إلا الموت عليه، وسيشعر بعظم هذه النعمة عند خروج روحه، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

ثم اعلم أن حُسن الخاتمة ليس مقصورًا على أن تموت في مسجد أو على سجادتك أو والمصحف بين يديك! لقد مات

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على فراشه، ومات أبو بكر كذلك.

حسن الخاتمة أن تموت على الإسلام، وقد برئت من النفاق ومعاداة أهل الإيمان.

أن تموت وليس لأحد عندك مظلمة في عرض ولا مال ولا كسر خاطر.

أن تموت فيكون أوّل من يفقدك مصلّاك ومصحفك.

مسك: عن عُبادة بن الصامت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ الله أَحَبَّ اللهُ لقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لقَاءَ الله كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ» قَالَتْ عَائِشَةُ أَوْ بَعْضُ أَزْوَاجِه: إِنَّا لَنَكْرَهُ المَوْتَ، قَالَ: «لَيْسَ ذَاكِ، وَلَكِنَّ المُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ المَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللهِ وَكَرَامَتِه، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ وَأَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ»** رواه البخاري.[1]

***

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه (٨/١٠٦).

رُبَّ مغمور في الملأ الأسفل مذكورٌ في الملأ الأعلى

﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٥٢]

اذكـر الله يذكرك، عملٌ يسـير وربحٌ كبيـر، والمحروم من حُرم الذكر، والغافل من حُرِم لذّة الذكر.

﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾، قيل في تفسير هاتين الكلمتين أكثر من مائة قول، وكلها صحيحة.

تأمّـل: لـم يقـل: فسـوف أذكركـم، أو فسـأذكركم، أو فأذكركم، لم يأتِ بأي حرف أو كلمة تفصل بين ذكر العبد لربّه وذكر الربّ لعبده، معناه أنك إذا ذكرته ذكرك مباشرة.

النفس البشـرية طُبعت على حبّ المدح والذكر الحسن، فإذا علِمتْ أنها ذُكرت استبشرت وأنِست.

وكمـا أن النفـس تأنس بمـدح الناس لها وحُسـن ذكرهم لهـا، فكذلـك هي تتألّم إذا لم تُذكر، لا سـيما إنْ كان عندها ما تُحمد عليه، وتُذْكَرُ به.

فأخي، احرص على ذكر الله، ولا تحزن إذا تجاهلك المُقرَّبون، ولم يُنوِّه بذكرك الحاسدون، ما دام أن اسمك يتردّد في الملأ الأعلى.

والشهرة والتأثير وعدد المتابعين وكثرة المعجبين، كلّ ذلك من ذكر الملأ الأسفل، ولا قيمة له، ما لم يكن للمرء ذِكْرٌ في الملأ الأعلى.

ورُبَّ مغمور في الملأ الأسفل مذكورٌ في الملأ الأعلى.

تخيّل أنه قيل لك: لقد ذكرك الملك أو رئيس الدولة وأثنى عليك، هل يُحزنك أنّ جارك لم يذكرك أو أنّ قريبك لم يُثنِ عليك؟

ستقول: لا.

إذًا فكيف بذكر ملك الملوك!

تأمّل قول الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، قال ابن عباس: «ذِكرُ الله إيّاكم أكبرُ من ذكركِم إيّاه»[(١)]

(١) تفسير عبد الرزاق (٣/ ٩).

وإيّاك أن تنسى ذكر الله فينساك، ثم تكون من المحرومين.

مسك: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ**» رواه البخاري.[1]

❊❊❊

(١) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨] (٩/ ١٢١)

أيها المصاب، ما الذي فاتك من حطام الدنيا؟

﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [البقرة: ١٥]

إنّا لله مُلكًا وتدبيرًا وتصريفًا، ومهما ذهبنا وجئنا وهربنا فإنّا إليه راجعون.

يقينك بأنك مُلْكٌ لله، يجعل رغبتك له وحده، وخوفك منه دون من سواه.

وعلمُك بأنّ مرجعك إليه، يجعلك تراه غاية مقصودك، ووحده معبودك.

﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ كلمة إذا قالها المصاب بَرَّدت عليه مُصيبته وهوّنت عليه كربته.

تأمّل ما قبل هذه الكلمة، فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦]، المؤمن مبتلى على قدْر إيمانه، ولكن من رحمة الله أنّ ابتلاءه ليس بكلّ أشياء العبد، ولكن بشيء

يسير من الشيء الكثير لديه، سواء من الخوف، أو الجوع، أو موت قريب، أو ذهاب مال.

هذه الأشياء من تلك الأشياء التي فقدتها، إذا تأمّلت حقيقة الأمر وجدتها مُلْكًا لله، فإنْ ذهبَتْ فقد ذهبَتْ لمن يملكها قبل أن تُخلق، وإذا صبرت واحتسبتها فسيعوّضك خيرًا منها بأضعاف مضاعفة، فهي لله كما أنك لله، وقد صارت إلى الله وأنت راجع إلى الله، فإذا صبرت فستجد ما بشّرك الله به، حيث قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥﴾ [البقرة: ١٥٥] ومن هم الصابرون؟

هم ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦﴾.

وقد ذكر الله ما لهم في الدنيا قبل حصول البشارة التي وعدهم بها، فقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ۝١٥٧﴾ [البقرة: ١٥٧] وصلاة الله على الصابرين هي الثناء عليهم في الملأ الأعلى، فالله يُثني على الصابرين، وينزل عليهم رحمته، ويشهد لهم بالهداية.

فبالله، يا أيّها المصاب، ما الذي فاتك من حطام الدنيا في مقابل صلاة الله عليك ورحمته بك وشهادته لك بالهداية!

وتذكّر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ [البقرة: ١٥٣]، واطمئنّ؛ فإن معك الله الذي بيده كلّ شيء، وإليه يرجع كلّ شيء.

مسك: عن أمّ المؤمنين أمّ سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، أنها قالت: سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللهُ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [البقرة: ١٥٦]، اللهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَخْلَفَ اللهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا»، قَالَتْ: فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ، قُلْتُ: أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ؟ أَوَّلُ بَيْتٍ هَاجَرَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ إِنِّي قُلْتُهَا، فَأَخْلَفَ اللهُ لِي رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» رواه مسلم.[1]

❋❋❋

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب ما يقال عند المصيبة (٢/ ٦٣١).

انطلقْ فإنه لا يضيعنا

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨]

قصة مشروعية السعي بين الصفا والمروة كانت بدايتها من سعي هاجر عَلَيۡهَا ٱلسَّلَامُ، عندما عطش ابنها إسماعيل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ فجفّ ثديها، وانقطع لبنُها، فصارت تسعى بين الجبلين -الصفا والمروة- تُشْرِف على هذا مرّة ثم تسعى للآخر وتشرف عليه مرّة، وتعود للأول، وهكذا حتى أتمّت سبعة أشواط.

كلّ هذا السعي لعلّها تجد من يمدّها وابنَها ولو بقطرة ماء.

قبل أن تسعى هذا السعي جاء بها أبونا إبراهيم -عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ- من الشام فتركها وابنها في هذا المكان، وقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: ٣٧]، فلما أراد إبراهيم الرجوع إلى الشام نادته هاجر فقالت: «يا إبراهيم، إلى مَن تكِلُنا؟ قال: إلى الله. قالتْ: انطلقْ فإنه لا يضيعنا».

فانطلق إبراهيم وهي على يقين أن الله لن يضيعها هي وابنها.

كانت تسعى بين الصفا والمروة وهي تبحث عن السبب الذي ينقذهم من الهلاك، كان أمَلُها وهي تشرف على الجبل أن تجد قطرةَ ماء تراها من بعيد، قطرةً تحملها قافلة أو سحابة قادمة، فكان الفرج قريبًا، ماءٌ ينبع مِن تحت رجليّ إسماعيل، ولا زال ينبع من ذلك الحين إلى هذا اليوم.

قالت لإبراهيم: «انطلقْ فإنه لا يضيعنا» امرأة ضعيفة، ولا ماء، ولا زرع، ولا ضرع، عندما يقول لها إمام الحنفاء: «أَكِلُكُم إلى الله» صدّقتْ هذا الخبر، واطمأنّتْ لما بعده من الأثر.

وهكذا يجب أن يكون المؤمن، يطمئنّ لوعد الله ورسوله، ويكون على يقين من صدق وعدهما، كأنه يراه رأي العين.

مسك: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ؛ تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا**[1]» رواه الإمام أحمد.[2]

---

(١) أي تذهب من عشها فارغة البطون، وتعود إليه وقد امتلأت بطونها من الطعام.

(٢) مسند أحمد (١/ ٤٣٨)

خيرة الله لعبده المؤمن

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البقرة: ٢١٦]

كم من الأشياء التي أحببناها وسعينا لها، ثم حمدنا الله أنها لم تحصل؛ لأن الخير كان ألّا تحصل، وكم من الأشياء التي نسعى لها ثم لا تكون، فنأسف ونجزع؛ لأنها لم تحصل! ولو كُشف لنا الغيب لسألنا الله ألّا تكون تلك الأشياء التي تمنّينا أن تكون، والمصيبة كلّ المصيبة لو أنها حصلت كما تمنّينا، وهي شرٌّ لنا، ثم لا نعلم أنها شرٌّ لنا إلا عندما نحاسب عليها يوم لا ينفع مال ولا بنون، فسبحان القائل: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾

وإذا كنت تؤمن بأن خِيرة الله لعبده المؤمن خيرٌ له من خيرته لنفسه فسوف تعيش في طمأنينة طول حياتك.

وإذا نازعتك نفسك فلم تصل لهذه المرتبة من الطمأنينة فأكثر من سؤال الله أن يُقدّر لك خير الأمرين، فإنه إذا حصل

لـك أحد الأمريـن: العطاء أو المنع، اطمأننـت لخيرة الله لك؛ لأن الخير يكون في المنع كما يكون في العطاء.

قـد تُحرم الغنـى؛ لأن الغنى يُطغيك، وقـد تُحرم الوظيفة التي كنت تتمنّاها؛ لأن الخير في دينك ودنياك أن تكون وظيفتك غيرها، وقد تُمنع الولد لأنه قد يُفسدك، والعُقم خير لك منه.

وتأمّل في كثير ممن حولك، فكم من شـخص حصل له ما يحبُّ ثم كرهه، وكم من شخص حصل له ما يكره ثم أحبّه.

وتامّـل خاتمـة الآيـة المُعنـون بهـا: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البقـرة: ٢١٦]، فمـا أضعفنـا في أمـر عِلْمنـا بمستقبلنا.

مسـك: قال عمر الفاروق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «ما أُبالي على أيِّ حال أصبحـتُ، أعلى ما أُحبُّ أمْ على ما أكره، ذلك؛ لأنّي لا أدري الخير فيما أُحِبُّ أو فيما أكره»[1].

❋❋❋

(١) الزهد والرقائق لابن المبارك والزهد لنعيم بن حماد (١/ ١٤٣).

اطمئنّ: فإن الله يعلم المفسد من المصلح

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠]

سبب نزول هذه الآية أنه لما نزل قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢] ونزل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا﴾ [النساء: ١٠] قام الصحابة يعزلون أموال أيتامهم إن كانت غنمًا أو طعامًا عن أموالهم، حتى صار ذلك أحيانًا سببًا لفساد طعامهم أو يكون ذلك سببًا لضياع مالهم لانشغال الأولياء بأموال أنفسهم، فحينئذٍ شقّ ذلك على الصحابة فسألوا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ عن ذلك فنزل قول الله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٢٠﴾﴾ [البقرة: ٢٢٠]، فأذِن الله أن يخلط أولياء اليتامى أموال اليتامى بأموالهم وطعامهم بطعامهم، فمثلًا يضعون طعام اليتيم مع طعامهم، لكن قد لا يأكل اليتيم طعامه كاملًا فيصير من نصيب الولي أو

أبنائه، فهذا معفوٌّ عنه ما دام أن الولي أراد الإصلاح في مخالطة اليتيم ولم يرد استغلال طعامه ليخفّف النفقة عليه في عياله.

كثيرًا ما يسأل بعضُ أولياء اليتامى عن مثل ذلك، فيقول: لدي أيتام لأبي أو لأخي، ولهم مال فأشتري لهم من مالهم ومن مالي، وربما أكلنا مما اشترينا لهم أكثر مما أكلوا، أو يقول: بنيت لهم كذا واشتريت كذا، وأخشى أن يكون ذلك من أكل أموال اليتامى بالباطل، فيقال له: اطمئنّ؛ فإن الله قد علم أن من الناس من قد يجد مثل هذا الحرج لشدّة احتياطه في أموال اليتامى فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِ﴾، أي يعلم من يريد الإفساد في عمله ومن يريد الإصلاح وإن كانت صورة العمل واحدة، فقد يخلط الوليُّ ماله مع مال اليتيم ليقلّل على نفسه نفقة عياله وهذا من الإفساد، وقد يخلط لإرادة دمج اليتيم معهم لئلا يَشعر اليتيم بأنهم إنما ينفرون منه ليُتمِه، وهذا نوعٌ من الإصلاح.

قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِ﴾، هذه الآية ليست خاصة فيما يتعلّق بمال اليتيم فقط، بل هي عامّة في كلّ الأعمال، سواء كانت من أعمال الخير أو من الأمور المباحة،

قد يقوم الإنسان بعمل ما وهو مجتهد فيه قد بذل الوجه الصحيح له، ثم يهجم عليه شعور بأنه قد يكون بهذا مفسدًا، وربما حمله هذا الشعور على ترك هذا العمل لا سيما إن كان العملُ عملَ برٍّ وخير، فهنا يُطَمْئن الله العبد بأنه يعلم من يريد الإفساد ممن يريد الإصلاح، حتى لو قُدّر أن هذا العمل لم يتمّ أو فشل، فإن المصلح فيه ليس عليه فيه تَبِعَةٌ ولا يلحقه منه إثم.

مسك: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يَغْزُو جَيْشٌ الكَعْبَةَ، فَإِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الأَرْضِ، يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ»** قالت: **قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، كَيْفَ يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ، وَفِيهِمْ أَسْوَاقُهُمْ**[1]**، وَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ؟ قَالَ: «يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ، ثُمَّ يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ»** رواه البخاري.[2]

❋❋❋

(١) (أسواقهم) هم الذين يبيعون ويشترون ولم يقصدوا الحرب، وربما لم يعلموا به.
(٢) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب ما ذُكِر في السوق (٣/ ٦٦)

يقين لا شك

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠]

إبراهيم إمام الحنفاء لم يتطرق إلى قلبه أدنى شك بأن الله يحيي الموتى، والله يعلم منه ذلك، لكنه تعالى سأله ليُنطقه عن سبب سؤاله فقال: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾، فاستجاب الله لطلبه كما قال تعالى: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: ٢٦٠]

إن إبراهيم كان يعلم علم اليقين أن الله يُحيي الموتى، لكنه أراد أن يرتفع درجةً في اليقين، وهي عين اليقين، وهي أن يرى بعينه ما يعلمه بقلبه، فيزداد قلبه يقينًا على يقين.

عندما يتطلّع العبد للبحث عن الحكمة في بعض الأمور مع يقينه بصحة الحِكمة في الخلق والأمر، وأن لله الحِكمة البالغة، فإن ذلك لا يقدح في يقينه، لكن بشرط أن تكون تلك الحكمة

المطلوبة مما يمكن الوصول إليها بدليل نقلي أو عقلي.

وهناك فرق بين الشك، وبين طلب الطمأنينة لزيادة اليقين!

فصاحب الشك إذا لم تتحقّق له الإجابة على سؤاله فلن يؤمن، بينما من يطلب الطمأنينة فهو إن لم يزدد يقينُه عند وجود الجواب فلن يَنقص بعدِمه.

وتأمّل هذه المحاورة لطلب الطمأنينة، فعن عبد الله بن الحارث بن نوفل قال: «جلستُ إلى كعب الأحبار وأنا غلام، فقلت له: أرأيتَ قول الله عن الملائكة: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠﴾ [الأنبياء: ٢٠] أَمَا يشغلهم عن التسبيح الكلامُ والرسالةُ والعمل؟ فقال كعب: من هذا الغلام؟ فقالوا: مِن بَني عبد المطلب، قال: فقبّل رأسي[١]، ثم قال لي: يا بُنَيّ، إنه جُعِل لهم التسبيح، كما جُعِل لكم النَّفَس، أليس تَتكلَّم وأنت تتنفّس، وتمشي وأنت تتنفس؟»[٢].

---

(١) لمكان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فعبد الله بن الحارث من بني عمومة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأبوه الحارث بن نوفل بن عبد المطلب بن هاشم.

(٢) تفسير ابن كثير (٥/ ٣٣٦).

المطلوبة مما يمكن الوصول إليها بدليل نقلي أو عقلي.

وهناك فرق بين الشك، وبين طلب الطمأنينة لزيادة اليقين!

فصاحب الشك إذا لم تتحقّق له الإجابة على سؤاله فلن يؤمن، بينما من يطلب الطمأنينة فهو إن لم يزدد يقينُه عند وجود الجواب فلن يَنقص بعدمه.

وتأمّل هذه المحاورة لطلب الطمأنينة، فعن عبد الله بن الحارث بن نوفل قال: «جلستُ إلى كعب الأحبار وأنا غلام، فقلت له: أرأيتَ قول الله عن الملائكة: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ٢٠﴾ [الأنبياء: ٢٠] أَمَا يشغلهم عن التسبيح الكلامُ والرسالةُ والعمل؟ فقال كعب: من هذا الغلام؟ فقالوا: مِن بَني عبد المطلب، قال: فقبّل رأسي[١]، ثم قال لي: يا بُنَيّ، إنه جُعِل لهم التسبيح، كما جُعِل لكم النَّفَس، أليس تَتكلَّم وأنت تتنفّس، وتمشي وأنت تتنفس؟»[٢].

---

(١) لمكان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فعبد الله بن الحارث من بني عمومة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأبوه الحارث بن نوفل بن عبد المطلب بن هاشم.

(٢) تفسير ابن كثير (٥/ ٣٣٦).

أي كما تتصوّر وأنت تتكلّم وتمشي ولا يشغلك مشيك وكلامك عن نفسك، فكذلك الملائكة لا يشغلها عملها عن التسبيح.

وعبد الله بن الحارث لم يكن شاكًّا في أن الملائكة يسبّحون كلّ وقتهم دون فتور، وإنما أراد أن يستظهر هذا المعنى ويتصوّره، فذكر له كعب الأحبار شاهدًا له من الواقع المعلوم.

وكعبٌ ومن عند كعب لم ينكروا على عبد الله بن الحارث هذه المسألة، ما دام أن للسؤال إجابة ممكنة.

فلا بأس من طَلَبِ ما يدعو إلى الطمأنينة سواء بضرب الأمثال، أو بالقياس على واقع الحال.

لكن ينبغي أن تعلم أنه ليس هناك جواب لكلّ سؤال؛ فهناك قضايا إيمانية لا يَعلم الحكمة منها إلا الكبير المتعال، فليس أمامك إلا التسليم التامّ، وعليك الاستدلال بما ظهر لك من الحِكَم الكثيرة على صحة ما لم يظهر لك مِن الحِكَم اليسيرة.

مسك: عن ابن عباس، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني أُحَدِّثُ نفسي بالشيء، لَأَنْ أَخِرَّ مِن السماء أحبُّ إليَّ مِن أنْ أتكلَّم به، قال: فقال النبي ﷺ: «**اللهُ أَكْبَر، اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَسَةِ**» رواه الإمام أحمد.[1]

***

(١) مسند أحمد (٤/ ١٠).

الله كافينا من كلّ شيء، ومُغنينا عن كلّ حيّ

﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ١٧٣﴾ [آل عمران: ١٧٣]

هـذه كلمة المتوكّليـن الذين يفوّضـون أمورهم للذي إذا أراد شيئًا قال له: كُن، فيكون.

﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي الله كافينـا مـن كلّ شـيء، ومُغنينا عن كلّ حيّ.

﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ أي ونِعـم مـن فُوِّضـت إليـه الأمور، ووُكِلت إليه الحاجات.

هذه الكلمة هي كلمة الموحدين، الذين أيقنوا أنّ الله خير معين وأعظم وكيل.

قـال ابن عباس: «حَسْـبُنَا اللهُ وَنِعْـمَ الوَكِيلُ» قَالَهَـا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حِيـنَ أُلْقِيَ فِي النَّـارِ، وَقَالَهَـا مُحَمَّدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ١٧٣﴾ [آل عمران: ١٧٣]. رواه البخاري.[1]

(١) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣] (٦/ ٣٩)

قالها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو وأصحابه بعد غزوة أحد، فإن المسلمين عندما هُزِموا في غزوة أحد وقَفَل المشركون إلى مكة، بلغ المسلمين -وفيهم الجراح غير من قُتِل- أن المشركين قد جمعوا لهم، وأنهم يريدون غزوهم، كما قصّ الله لنا ذلك في كتابه حيث قال: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣]، فلمّا قالوها أثابهم الله عليها ما أنساهم ما حلّ بهم من جراحة وقتل، حيث قال تعالى: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران: ١٧٤]

عندما تقول هذه الكلمة وتردّدها موقنًا بما دلّت عليه، ستشعر بنزول ما يشبه السكينة عليك، كيف لا! وأنت تقول بلسان حالك ومقالك: خرجت من حولي وقوّتي إلى حول الله وقوّته، وفوّضت أمري لله، فهو حسبي ونعم الوكيل.

المؤمن عندما يقول هذه الكلمة فقد أحال قضيّته للحسيب الكافي، ولذلك فلن يلتفت بعدها ماذا حصل بها؛ لأنه يعلم أنها بيد الله الذي سيحفظها، وسيجد العبدُ نَصرَ الله في الوقت الذي

يختاره الله، والوقت الذي يختاره الله هو الوقت الأنسب لكلّ قضية بحسبها.

ألا ترى أنّ مِن يقين بعض المؤمنين أنه يكتفي في مظلمته بقوله للظالم: حسبي الله ونعم الوكيل، ثم لا يرفع مظلمته لقاضٍ من قضاة الأرض بعد ذلك.

مسك: عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَنْ قَالَ فِي كُلِّ يَوْمٍ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمْسِي: حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، سَبْعَ مَرَّاتٍ، كَفَاهُ اللهُ** عَزَّ وَجَلَّ **هَمَّهُ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»** رواه ابن السني.(١)

❋❋❋

(١) عمل اليوم والليلة لابن السني، باب ما يقول إذا أصبح (ص: ٦٧).

اليقين بأنك ميّت يرخّص عندك قدر الحياة الدنيا

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]

لا تظنّ أن التذكير بالموت لتموت وأنت حي! وإنما لتحيا حياة طيّبة قبل الموت، وتحيا حياة النعيم بعد الموت.

اليقيـن بأنك ميّـت يرخّص عندك قدر الحيـاة الدنيا، وإذا رخصت لديك فستجد أن المساحة المشغولة في قلبك بالتعلّق بالحيـاة قد صارت فارغـةً، فتقوى حينئذٍ علـى ملْئها بما يعود عليـك بالنفع في أمـر دينك ودنيـاك، تملؤها بالتأمّـل والتذكّر والقناعـة والرضـا، وتلك مـن أعظم الأمور التـي يحتاج إليها قلبـك، أن يكون فارغًا من كل علائـق الدنيا، لتكون مطمئنًّا في الحياة، حيًّا بالطمأنينة.

عِلمُـك بأنك لـن تموت قبل يومك يقـوّي قلبك أمام كلّ من يخوّفك من الموت وأسبابه، لا لتتهوّر، ولكن لئلا تضعف عند ذِكره.

يمكن أن نسمّي هذا النوع من النظر في الموت: (التصالح مع الموت)، وذلك ليرى المؤمن أن الموتَ وذِكرَه سببُ خير له لا شرّ، وأنه شيء لا بدّ منه، لا مفرّ منه، فلا ينبغي أن يضيع العمر أو الجهد في الانشغال به بدلًا من الانشغال له.

أخي، عندما وُلِدتَ كُتِبَت لك شهادة ولادة، وعندما تموت فستُكتب لك شهادة وفاة، اعتبر هذه الشهادة شهادة تخرُّج من الحياة، ولا بدّ أن يكون هذا التخرّج بدرجة عالية.

مسك: المؤمن عند سكرة الموت يزوره أطهر خلق الله، ومعهم بشارة من الله، ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النحل: ٣٢]

❀❀❀

اشفعوا تؤجروا

﴿ مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾ [النساء: ٨٥]

الشفاعة هي أن تسعى لأحد عند آخر لقضاء حاجته.

والشفاعة لا يسعى فيها إلا أهل المروءة، والله إنما بعث رسوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ليتمّم مكارم الأخلاق، والشفاعة من مكارم الأخلاق.

هناك شافع وهو الساعي، ومشفوعٌ له وهو صاحب الحاجة، ومشفوعٌ عنده وهو من عنده تلك الحاجة.

ليس على كلّ حال تتحقّق حاجة المشفوع له، أو تُقبل شفاعةُ الشافع، فبعض المشفوع عندهم قد يكون معذورًا في ردّ الشفاعة، وقد يكون لئيمًا أو شحيحًا، وقد يكون المشفوع له ممن لا يستحق أن تُقضى حاجته.

المهمّ الشافع، ما حاله عند ردّ شفاعته؟

الجواب: أنه يُكتب له الأجر حتى مع ردّ شفاعته؛ لأن الله

قال: ﴿ مَن يَشْفَعْ ﴾ ولم يقل (من يُشَفَّع)؛ لأن ﴿ مَن يَشْفَعْ ﴾ هو من يسعى لغيره، وأما (من يُشَفَّع) فهو من قُبلت شفاعته.

ولذلك فبمجرّد الشفاعة يؤجر الشافع وإن لم تُقبل شفاعته.

وهذا فضل من الله، لكيلا يتخلّف الناس عن الشفاعة وخدمة الناس بحجة أن المشفوع عنده ربما لا يقبل الشفاعة.

قد يتألّم الشافع إذا رُدّت شفاعته، إمّا لأنه يرى أنه أُستهين بها، أو رحمةً بالمشفوع له إذْ لم تتحقّق حاجته، لكن الله هنا يطمئنه بأنّ أجره قد تحقّق وكُتب.

وفي الآية إشارة لقول الله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦] فليس من وسع الشافع أنْ يُلزم المشفوع عنده بقبول شفاعته.

مسك: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا**» رواه البخاري.[1]

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب التحريض على الصدقة والشفاعة فيها (٢/ ١١٣)

الإنجاز راحة

﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]

مِن أكثر الأشياء التي يشعر الإنسان بسببها بالارتياح، الإنجاز، فعندما تنجز عملًا يعود عليك بالنفع، فستجد ارتياحًا لا تجده في اليوم الذي ليس فيه إنجاز.

وأعظم الإنجازات أن تكون مطيعًا لله في سرّك وعلانيتك.

الإنجاز ليس هو الانتهاء من عمل ما، أو إتمام مشروع معيّن فقط، بل إنّ السير في طريق هذا المشروع أو ذاك العمل إنجاز بحدّ ذاته.

تأمّل هذه الآية، فإن الهجرة إنجاز عظيم للمؤمن، وكذلك السير إليها إنجاز آخر، والأجر ثابت للمهاجر وإن لم يصل لمكان هجرته.

وهكذا في جميع الطاعات، يكتب الله لأصحابها أجر السير إليها وأجر تحصيلها وأجر ما يترتّب عليها، كما قال تعالى:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾ [يس: ١٢]

ولذلك فالمؤمن يظلّ مطمئنًّا حتى لو لم يحصل له إتمام عمله، لا سيما إنْ حال بينه وبينه مانع، فأجره مكتوب ما دام يسير على طريق العمل الصالح، وهذا بخلاف الأعمال الدنيوية؛ فإن الإنسان يبقى قلقًا من ألّا يُتمّها، فإن انقطع عن إتمامها لعذر ضاع عليه جُهده الذي بذله في إتمام هذا العمل.

ومن الطمأنينة في العمل الصالح أن الكرام الكاتبين يكتبون كلّ شيء يُبذل لتحصيل ثواب هذا العمل، ولا ينتظرون انتهاءك منه.

مسك: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ رَبَّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَحِيمٌ، مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا، كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا، إِلَى سَبْعِ مِائَةٍ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ**» رواه الإمام أحمد.(١)

❀❀❀

---

(١) مسند أحمد (٤/ ٣١٥).

ضيق الألم وسعة الأمل

﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]

هـذه الآية نزلـت بعد غزوة أحد، وقد أُصيب المسـلمون في تلـك الغـزوة، فكانت الدائرة للمشـركين، فقُتل من قُتل من المسلمين وجُرح من جُرح.

الألـم قـد يكـون مشـتركًا بيـن المسـلم والكافـر، والبرّ والفاجـر، لكنهـم لا يشـتركون بمـا في قلوبهـم مـن الصـبر والاحتساب والطمأنينة والأخذ بالأسباب.

المؤمـن يتألـم، لكـن يُخفّف ألمـه ما يعلمه مـن الثواب والجزاء الذي ينتظره عند الله، كحال العامل الأجير الذي يجد مشـقةً في عملٍ ما، لكنه يجد لذّة أخرى؛ لأنه وجد عملًا يُكافأُ عليه، فهو ينتظر فراغه من العمل ليستلم أُجرته.

تخيّل أن هذا العامل يُقاسي مشقّة العمل وفي قرارة نفسه أنه ليس هناك مكافأة على عمله هذا، فكيف سيكون وقعُ المشقة النفسيّة عليه، ستكون أشدّ من وقع المشقة البدنيّة التي نالته.

المؤمنون مهما نالهم من ألمٍ ومشقّة فإنهم يتحمّلونها؛ لأنهم يعلمون أن ما ينتظرهم من الأجر أعظم مما فاتهم من راحة الدنيا، وأكبر مما يتخيّلون، فلذلك هم يتحمّلون.

وأما المشركون فيتألّمون ويتحسّرون، ولا يجدون ما يبرّد عليهم آلامهم ويخفّف عنهم حسرتهم.

فإذا أُصِبْتَ بمُصيبة، فقالت لك نفسك: ما الذي يُبرّد حرّها؟

فقل: أنني أحتَسِبُ أجرَها.

مسك: تأمّل، ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [النساء: ١٠٤]

هنا ضِيْق الألم: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾.

وهنا سَعة الأمل: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾.

وكل ذلك بتدبير الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [النساء: ١٠٤]

❋❋❋

عندما يكون الطلاق حلا

﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ ﴾ [النساء: ١٣٠]

المراد بالفرقة هنا فرقة الزوجين بالطلاق.

الطلاق ليس مشكلة، بل حلّ.

نعـم، حلٌّ لمن سـلك طريق القرآن في معالجة المشـاكل الزوجية.

المشـاكل التـي لا يمكـن حلُّهـا ولا يمكـن للزوجيـن الاستمرار بها معًا، يكون الطلاق عندها حلًّا.

وإذا كان الطـلاق كذلك فقـد وعد الله كُلًّا مـن الزوجين بالغنى.

يُغنـي الله كلًّا من الزوجين عن الآخر، فيعوّض كلّ واحد خيرًا مما فاته، ويُغنيه بذلك الخير.

الذي شرع الزواج الله، والذي أَذِنَ بالطلاق الله.

والمغني الذي وعد بالغنى هو الله، فلا تهتمّ لفرقة حصلت بعد أن امتثلتَ أمر الله؛ فقد وعد الله بالغنى، وهو الصادق في قوله، القادر على إنجاز وعده.

وتأمّل كيف قال الله تعالى: ﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾ ولم يقل (من فضله) لئلا يظن المُطلِّق والمطلَّقة أن الطلاق يؤدي إلى الضيق في الحياة، بل فيه سعة منتظرة، وفيه حكمة مُعتبرة، يعلمها العقلاء، ولذلك ختم الله الآية باسمه الواسع: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾، ليناسب قوله ﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾، فهو واسع في عطائه وفضله ورحمته، حكيم في أمره وحُكمه.

مسك: الطلاق ليس منعطفاً إلى الهاوية، بل هو نافذةٌ تُطِلُّ على أملٍ جديد، أمل بسعة فضل الله ولطيف حِكمته.

❋❋❋



إن كان ذنبك عظيما فعفو الله أعظم منه

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة: ٧٤]

مهما عظُمَ ذنبك فلن يكون أعظم من ذنب هؤلاء الذين تكلّم الله عنهم! يقولون: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، ثم يعرض الله عليهم التوبة بهذا الأسلوب الذي يحمل في طيّاته سعة رحمة الله وعظيم عفوه ومغفرته؛ فهو تعالى لا يحبّ أن يعجّل العصاة بالعقوبة، بل يحبّ منهم التوبة، وإن جاءت متأخّرة.

أخي، ذنبك وإن كان عظيمًا فعفو الله أعظم منه، وإن كان كبيرًا فرحمة الله أكبر منه، وإن كان كثيرًا ففضل الله أكثر منه.

المهمّ، قدّم بين يدي عفو الله ومغفرته توبةً نصوحًا، لتنال فضله وعفوه ورحمته.

ولا تُشغلنّك معاصيك القديمة عن طاعاتك الجديدة، واعلم بأنّ التوبة تَجُبُّ ما قبلها، وأن التوفيق للطاعة دليل على قبول التوبة.

وإيّاك أن تسوّف التوبة وتؤخّرها، فإنْ بدرت منك معصية فبادر بالتوبة، فمن أسرع إلى الله بالتوبة النصوح أسرع الله له بالقبول العظيم.

﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ التوبة هنا الرجوع إلى الله، وأما الاستغفار فسؤال الله محو الذنب وعدم المؤاخذة عليه.

تأمّل ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ معناه إذا استغفرت غفر لك، وتجاوز عنك، ثم لا يتركك، بل يرحمك، ومِن رحمته أن يحوطك بعنايته، ويهيئ لك أسباب الرحمة بتقواه وطاعته.

ألا ترى أن ملوك الدنيا إن أخطأت في حقّهم فغاية إحسانهم أنهم يعفون عنك، ثم لا يهتمّون بك كاهتمامهم بمن لم يخطئ في حقّهم قطّ. الله وحده ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، غفور لما مضى من أخطائك، رحيم بك فيما يأتي من أحوالك.

مسك: عن أبي ذرٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال لي رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اتَّقِ اللهِ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا**». رواه الترمذي.(١)

(١) سنن الترمذي، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في معاشرة الناس (٣/ ٤٢٣).

جزاء الموحّدين .. أمْن دائم وهداية مستمرّة

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٢]

المراد بالإيمان في الآية، الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشرّه.

وعلامة صدق هذا الإيمان أن تأتي بأركان الإسلام.

والمراد بالظلم في الآية الشرك.

والإيمان بالله وعدم الإشراك به هو التوحيد الذي خُلق من أجله الجنّ والإنس، وقد ذكر الله هنا جزاء الموحّدين أنهم في أمْن دائم وهداية مستمرّة.

تأمّل سياق هذه الآية، فقد جاءت بعد قصّة إبراهيم - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مع قومه، وقد هدّدوه وخوّفوه، كما قال الله تعالى: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ

﴿أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنعام: ٨٠-٨١]

إبراهيم إمام الحنفاء والموحدين كان وحدَه في مقابل أمّةٍ من الناس يخوّفونه، لكنه لم يستجب لتخويفهم، ولم يُثْنِهِ عن التوحيد تهديدُهم؛ لأن الموحِّد لا يخاف إلّا الله، وهذا هو الأمن الحقيقي، وهو الّا تخاف إلا من الله.

قال عمر بن عبد العزيز: «من خاف اللهَ أخاف اللهُ منه كلَّ شيء، ومن لم يخف اللهَ خاف من كلّ شيء»[1].

والتوحيد كما أنه أمان في الدنيا من مخاوف الدنيا، فكذلك هو أمان في الآخرة من مخاوف الآخرة.

فإذا أردت الأمان والاطمئنان فعليك بالتوحيد والإيمان.

التوحيد سبب لكل هداية، فحقّق التوحيد وأبشر بالخير.

والشرط، ألا تقع في الظلم الأكبر وهو الشرك.

ثم اعلم أنه ليس هناك شيء يُخفّف هموم الدنيا عليك،

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي (٢/ ٣٠٤).

ويُرخّصها في عينيك، ويُقنّعك بما في يديك، كتحقيق كمال التوحيد.

مسك: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قال لي جبريل: بَشِّرْ أُمَّتَكَ أَنَّهُ مَنْ مَاتَ لاَ يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّةَ**» رواه البخاري.[1]

❊❊❊

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب المكثرون هم المقلّون (٨/ ٩٤).

الغَيْرة على الدين خُلُق كلّ مؤمن قويم

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ١٥٢ ﴾ [الأعراف: ١٥٢]

الغَيْرة على الدين خُلُق كلّ مؤمن قويم، يؤذيه ما يؤذي الله ورسوله الكريم.

أحيانًا يجد المؤمن حسرةً مما يراه من أفعال أعداء الدين، مِن افترائهم على الدين وأهله وأذيّتهم لهم بالمقال وبالفِعال.

وقد لا يستطيع المؤمن الغيور أن يردّ قولهم أو يمنع فعلهم.

فيقال له حينئذٍ: لا تحزن؛ فإن الله قال لرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٨ ﴾ [فاطر: ٨]، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، فسيأتي اليوم الذي يَشفي الله فيه صدور المؤمنين، فإن الله قد وعد أنْ يُذيق كلَّ مفتر الذّلَّ والهوان في الدنيا قبل الآخرة، فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ١٥٢ ﴾

فهذا وعد الله، ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء: ١٢٢]

وتأمّل، كم في القرآن من الآيات التي تأمر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالصبر والارتقاب؛ لأن القضية محسومة، والعبرة بكمال النهايات لا بنقص البدايات.

كلّ الذي عليك أيّها المؤمن، أن تُعرِض عن الاهتمام بهم، لتشتغل بالأهمّ منهم.

وإنْ أغراهم الشيطان فتسلّط عليهم، فأمهلهم وانتظر وعيد الله فيهم.

مسك: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٢٧]



اليقينُ بأن الله معك طمأنينةٌ لقلبك

﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]

أخرج الكفارُ رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مـن مكة، مِن أرضه الواسـعة، حتى ألجؤوه إلـى غارٍ ضيّق، لم يكن صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أرضه الواسـعة آمنًا مطمئنًّا، ولكنـه أصبح في الغار الضيّق أكثر طمأنينـة وأمنًـا، ولذلك قـال لصاحبـه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.

لـم يقل: فالله معنـا، بل قال: إن الله معنـا. والعربي يعرف أن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ أبلـغ وأدلّ علـى توكيـد الخبر من (الله معنا).

كان الكفـار علـى بُعـد خطوات منه يسـيرة جـدًّا، ولكن كانت ثقته بالله كبيرة جدًا جدًّا، تأمّل ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾، السكينة أبلغ من الطمأنينة.

اليقيـنُ بأن الله معك طمأنينـةٌ في الداخل، حتى ولو كانت الأوضاع مضطربة في الخارج.

يقـول لصاحبـه: لا تحزن مما نحـن فيـه، ولا تَخَفْ مما يُتوقّع أن يكون، حتى لو أمسكوا بنا، فإنّ الله في جميع الأحوال معنـا، حتى الأحوال التي نظنّ أنها قد تكون أسـوأ ما يمكن أن تكـون. عندمـا يكون الله معنـا فلا داعي للحـزن المهلك، ولا داعي للهلع المُنسي؛ فإنّ الله معنا، معنا القويّ الذي معه أعظم قـوّة، فنحـن ومَن أمـام باب هذا الغـار كلّنا تحت قـوة الله وفي قبضتـه، فلماذا الحزن! اطمئن يا أبـا بكر، نحن معنا القوّة التي لا تُغلب، والعزّة التي لا تقهر، والمَنَعة التي لا تُكسر.

ينبغي للمؤمن الذي يسير على طريق الله أن يستحضر أنه لـولا معيـة الله له لم يسـر على هذا الطريق، فـلا يحزن إن جاء داعي الحزن وهو على هذا الطريق.

وليـس المقصود من قولنا (لا تحزن) أي لا يأتِك الحزن؛ فـإن هذا غيـر ممكن؛ لأنه يـأتي بغيـر اختيار الإنسـان، ولكن المقصود أن يجتهد في تخفيف وطْأة الحزن بألّا يسترسل معه، وأن يجتهد في دفع الحزن بتذكّر أنّ الله معه.

مسك: اليقيـن بـأن الله معك قـوّة داخليـة، لا تَقْوى على إزاحتها كلُّ القوى الخارجية.

نَمْ قرير العين فلن يصيبك إلا ما كتبه الله لك

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [التوبة: ٥١]

هـل تريـد أن تكون في نفسـك قويًـا، وتنطلـق في حياتك بطمأنينة، وتشـعر براحة مع كلّ سبب تبذله، ويتبدّد خوفُك من المستقبل، وتكون كالصخرة تتفتّت عليها كلُّ مصيبة؟

الجواب: اقرأ هذه الآية، وتدبّرها وأنت مُتيقِّنٌ بمقتضاها، وحاول أن تُعايش معناها.

الإيمـان بالقضـاء والقدر يريحـك من القلـق وحمل همّ النتائـج، ويجعلـك تبـذل الأسباب وأنـت في كامـل راحتك وطمأنينتك.

عندمـا تعلم علمَ اليقين بأنّه لن يكون إلا ما كتب الله لك، فسـوف تنـام قرير العين، وتسـتيقظ هـادئ البـال، وتعيش مع الناس مطمئنّ القلب؛ فإنه من سَلَّمَ لله في قَدَرِه اطمأنّ في جميع أمره.

قال الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [التغابن: ١١] قال ابن عباس: «قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ يعني: يهدِ قلبَه لليقين، فيعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه»[١].

المؤمن يُحسن بالله الظنّ فهو يظنّ أنّ كل ما قدّر الله له ففيه خير عاجل أو آجل، حتى لو كان فيه ضررٌ دنيويّ، ألا ترى كيف أمر الله رسوله ونحن تبعٌ له أنْ يقول: ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ لم يقل: ما كتب الله علينا، بل قال: لنا؛ لأن المؤمنَ أَمْرَهُ كلَّه له خير، كما قال رسول الله ﷺ: **«عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»**[٢]، فالمؤمن بين أجر وأجر، فلماذا لا يطمئنّ لقضاء الله وهو مولاه!

---

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ١٢)

(٢) صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كلّه له خير (٤/ ٢٢٩٥)

تدبّر قوله تعالى في الآية ﴿هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ﴾ أي حافظنا وناصرنا، فأهلًا بكل ما يأتي من الله مولانا، نعم المولى ونعم النصير.

الإيمان بالقضاء والقدر يمنحك قوّة في الحال وطمأنينة في شأن المستقبل، قوة لا تخاف معها، وطمأنينة لا تقلق عندها؛ لأنك تعلم أن كلّ شيء بيد الله وبتقديره تعالى، وقلقُك وخوفُك لن يُغيّر من الأمر شيئًا، وإنما يغيّر في نفسك أشياء، لتحلّ بدلها أشياء، منها الضعف والاضطراب.

فلْيأتِك قدرُ الله وأنت راضٍ تمام الرضا، فمن رضي فله من الله الرضا، ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾.

مسك: قال رسول الله ﷺ: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ**» رواه الترمذي.[1]

---

(١) سنن الترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ (٤/٢٤٨)

الشيطان إذا أوقعك في المعصية زهدك في الطاعة

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [التوبة: ١٠٢]

الاعتراف بالذنب أول الطريق للتوبة، وأقرب طريق لعفو الله، مهما كان ذلك الذنب.

ومن رحمة الله أن تلك الذنوب-عدا الشرك والحسد-لا تفسد العمل الصالح الذي عمله العبد.

تأمّـل قوله تعالى: ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾، لا يزال العمل الصالح مكتوبًا لهم، ولم يفسده العمل السيئ.

الشـيطان إذا أوقعـك في المعصية زهّـدك في الطاعة، فمِن وسوسته أن يقول: أنت تتصنّع بأنك صاحب طاعة وأنت الذي تعمل معصية كذا ومعصية كذا، أنت منافق!

هل تعلم أن من الناس من يستجيب لهذه الوسوسة فيترك العمل الصالح حتى لا يكون منافقًا بزعم الشيطان!

لقد أرسل لي أحدهم: يقول: إنه لا يُعفي لحيته كما ينبغي، فوقع في نفسه أنه متّبعٌ لهواه وأنه اتّخذ إلهه هواه، يقول: فتركت الصلاة؛ لأنني أشعر أنني منافق، فكيف أعصي الله هناك وأطيعه هنا!

الله يقول: ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾، لقد سُجّل لك العمل الصالح.

قال أبو عثمان النهدي: «ما في القرآن آية أرجى عندي لهذه الأمّة من قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [التوبة: ١٠٢]»[(١)].

وليس هذا معناه أن يتمادى العبد بالذنب، وإنما معناه ألّا يقنط من رحمة الله، فيظن أنه إذا تاب فلن يتوب عليه.

وينبغي على العبد أن يخاف أن تطغى سيئاته على حسناته، فتثقل في ميزانه فيُلقى في النار، فلذلك لا بدّ من الاعتراف مع الخوف، والمبادرة بالتوبة من غير سين وسوف[(٢)].

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ٢٠٦).

(٢) أي لا يُسوّف فيقول: سأتوب وسوف أتوب...

﴿ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾، الاعـتراف بالذنب إقـرار مع ندم، فإذا شعرت بالندم فاستبشر؛ فقد وقفت على باب التوبة الصالحة، فاستمرّ.

قال رسـول الله ﷺ: «**إِنَّ العَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ ثُمَّ تَابَ، تَابَ اللهُ عَلَيْهِ**»[1].

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ إذا رأيـت في القـرآن (عسـى الله أن يفعـل كذا) فاعلم أنه سيفعله، ولذلك قال بعض السـلف: «عسى من الله واجبة»، أي حاصلة لا محالة.

أي أنـك إذا وُفِّقت للاعتراف فقد تهيأت للتوبة، وسـيغفر الله لك.

والاعـتراف الصـادق لا يكـون إلا بالنـدم على مـا فات، والعزم على عدم العودة إلى الذنب مرّة أخرى.

وتأمّل كيف ختم الله الآية باسـمين كريمين سُبِقا بالتوكيد بـ(إنّ)، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٠٢﴾، فهذا أعظم ترغيب للمبادرة للتوبة، والمسارعة للرحمة.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضًا (٣/ ١٧٥).

مسك: قال رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَـيِّدُ الاسْـتغْفَار أَنْ تَقُـولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لاَ إِلَـهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْـتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُـوبَ إِلَّا أَنْتَ» قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَـنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَـا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِـيَ، فَهُوَ مِـنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَـا مِنَ اللَّيْـلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْـلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ» رواه البخاري.[(١)]

❀❀❀

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب الاستغفار (٨/ ٦٧).

الحاجة إلى حسن الظن بالله

﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: ٨٧]

اليـأس من روح الله مِن خصـال الكُفْر، والظن بتنفيس الله وفَرَجه من خِصال الإيمان.

واليأس سوء ظنٍّ بالله، وتعلّقٌ بغيره تعالى.

والمؤمـن يأمـل الخير مـن الله ويرجـوه، ويبذل أسـباب تحصيلـه، وهـو في جميـع الحالات، لـه مع أقـدار الله إحدى الحسـنيين، إمـا حصول مطلوبـه مع ثبوت الأجر على حسـن الظنّ، وإما ثبوت أجر ظنّه الحسن بالله وإن لم يتحقّق مطلوبه.

والمـرء مـع الكرب ليس لـه إلا حالتان، إما حسـن الظنّ بالله بتفريج كربته، وإما سوء الظنّ بأنه لن يفرّجها. وسوء الظنّ يأسٌ من روح الله.

والمكروب يحتاج إلى حسـن الظنّ حاجة نفسيّة ودينيّة، وأما اليأس من روح الله فمضرٌّ له في دينه وفي نفسه.

أمـا حاجتـه الدينيّة فإنه يؤجر على حسـن الظـنّ؛ فإنه لم يعهد من الله إلا خيرًا، ومَن عُهِد منه خير فلا يجوز إساءة الظنّ به، فكيف بالذي الخير كله بيديه، والشرّ ليس إليه.

وأما حاجته النفسـيّة فإن سـوء الظن واليأس من روح الله وباءٌ على النفس، يُفسد عليها متعتها بما في يدها، وهذا يحملها على رؤية الأشياء الجميلة باهتة لا لون لها ولا طعم.

ومما قيـل لعلاج النفس من اليـأس: «لا حياة مع اليأس، ولا يأس مع الحياة».

وما أحسنها لو كانت: لا حياة مع اليأس، ولا يأس مع الله.

فـلا تيأس من رَوح الله، واجعل أملك بالله وفي الله، لتحلوَ لك الحياة.

وعلـم أن حُسْـنَ الظنّ نوعٌ من الأمـل، والأمل جميل في كلّ الأحوال، حتى في الأحوال التي يقال عنها شبه مستحيلة؛ لأنك بحسن الظنّ تتنفّس فتجد انشراحًا في الصدر وفُسحة في الحياة، بخلاف سوء الظنّ فإنه يكتم الأنفاس، ويُنغّص عليك الحياة.

ففي حياتك مثلًا، الأمل يجعل لكلّ مرحلة عمريّة مُتعتَها، فـلا تظنّ أنـك إذا صرت كهلًا، أو بلغت سـنّ الشـيخوخة أنه سـيموت فيك الاسـتمتاع بالحياة، بـل سـتتجدّد المُتع بتجدّد مراحل العمر، فالله خلق الأمل لئلا تضيق بنا الحياة.

المؤمن يحسـن الظـنّ ويعتقد أن هذا هـو الصوابُ ليس بعقلـه فقط بل وبإيمانه بـالله أيضًا؛ فلذلـك لا تجده ييأس من رَوح الله، بـل يعلم أن فَرج الله قريب، ويسـتيقن أنّ الله إنْ أخّرَ تفريج كربته فلخيرٍ أراده به، ولسان حاله ومقاله في كلّ حالاته: سيأتي الله بالفرج.

مسـك: الضِّيْق الـذي أنت فيه قـد يكون مدخلًا لسـعة لا تخطـر منك على بال، فهذا يوسـف -عَلَيْهِ السَّلَامُ- ألقاهُ إخوتُه في بئر، ثم وجدوه عزيز مِصر.

❋❋❋

لا طمأنينة للقلب إلا بذكر الله

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨]

ذِكْرُ الله هو القرآن، وذِكْرُه -أيضًا- حمدُه وتسبيحه وتهليله وتكبيره. والقلب الذي لا يذكر صاحبُه اللهَ قلبٌ مضطرب، بل قلبٌ ميّت، كما قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لاَ يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ**»(١).

والطمأنينة كلّ الطمأنينة بذكر الله.

كلّ صاحب صناعة يُرفِق مع مُنتَجِه تعليمات فيها إرشادات للتعامل الصحيح مع هذا المنتج.

الذي خلق هذا القلب وأحسن صُنعه يقول لك: لا طمأنينة لك إلا بذكري، ولا حياة لقلبك إلا بذكري.

ولذلك، فالذي يذكر الله كثيرًا يطمئنُّ كثيرًا.

الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات يستمدّون قوّتهم بذكر الله، ألا ترى أنّ الله خفّف عن المجاهدين بعض أركان الصلاة،

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله (٨/ ٨٦).

فيجوز لهم أن يتركوا الركوع والسجود في حالات، وفي بعض الأحوال يجوز لهم أن يقصروا الصلاة إلى ركعة واحدة، والصلاة أعظم ركن بعد الشهادتين، ومع هذا فقد قال تعالى لهؤلاء المجاهدين عند الاقتتال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٥] أمرهم بكثرة الذّكر، وقد خفّف عنهم في الصلاة.

الجهاد يحتاج إلى قوّة القلب وثباته؛ لأن قوة السلاح الماديّة وحدها لا تكفي! لابُدّ من قوّة القلب، ولا قوّة للقلب إلا بذكر الله.

المجاهد عندما يذكرُ الله، فإنه سيقاتل بقلب قويّ مطمئنّ؛ لأنه يعلم أنه إن مات مات في سبيل الله وإلى جنة الله، وإن بقي حيًّا فسوف يحيا منتصرًا عزيزًا، فهي إحدى الحسنيين.

الذين ذاقوا حلاوة الذكر وشعروا بطمأنينته لا يمكن أن يُفرّطوا فيه، ولا يشغلهم شيء عنه، فهم يذكرون الله في كلّ أحيانهم.

الذّكر نعمة عظيمة تستحقُّ الشكر، ولا يشكرها إلا من عرف قدرها، ولذلك استُحبّ لمن استيقظ من نومه أن يقول

كما أرشد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي، وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ**»[1].

لا أقول لك: جرّب فالتجربة خير برهان، بل أقول: اِعْمَل فالقرآن خير برهان.

التجربة دليل حسّي، والقرآن كلام ربّي.

لا تجرّب الذّكر، بل التزمه واعمل به مستيقنًا ثمرته.

قد تذكر الله اليوم كثيرًا لكنّك قد لا تجد تلك الطمأنينة في اليوم نفسه! لأن الذكر أولًا يقوم بتبديد ران المعصية، ويعمل على رفع غان الغفلة، وكلّ ذلك في القلب، ثم تأتي الطمأنينة شيئًا فشيئًا، حتى تتمكّن من القلب بحيث لو قُسِّمت على متشائمي الأرض كلّهم لَوَسِعَتْهم تفاؤلًا وطُمأنينة.

قال رجل للحسن البصري: يا أبا سعيد أشكو إليك قسوة قلبي.

قال: أَذِبْهُ بالذِّكر.[2]

---

(١) سنن الترمذي، أبواب الدعوات (٥/ ٣٤٣).

(٢) شعب الإيمان للبيهقي (٢/ ١٨٠).

وهذا كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]

مسك: قال رسول الله ﷺ: **«مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا يَذْكُرُونَ اللهَ فِيهِ إِلَّا حَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَتَغَشَّتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَتَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»** رواه ابن ماجه.(١)

❋❋❋

(١) سنن ابن ماجه، كتاب الأدب، فضل الذكر (٢/ ١٢٤٥).

المتوكلون على الله هم المهتدون

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾

[إبراهيم: ١٢]

تأمّل في الآية، فقد ابتُدِئت بالتوكّل وخُتِمت بالتوكّل، ولذلك فما بينهما لا يحصل إلا بالتوكّل.

فالهداية لطريق الحقّ لا تكون إلا بالتوكّل على الله والاستعانة به، وهذا هو دأب المؤمنين القائلين: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥]

التوفيق التامّ لا يكون إلّا بالتوكّل التامّ.

المتوكّلون على الله هم المهتدون، كما أن المهتدين هم المتوكّلون.

والمؤمن لا بدّ وأن يقع عليه شيء من الأذى في الدنيا، امتحانًا لصدقه وزيادةً في أجره، فعندما يتوكّل على الله حقّ التوكّل فسوف يهون عليه كلّ أذى؛ لأن الله سيمنحه من الصبر

على قدر ما حلّ به من الأذى؛ ولأن الذي هداه للتوكّل سيعينه على الصبر عند البلاء.

التوكّل على الله هو الاعتماد على الذي بيده نواصي الخلق كلّهـم قويّهم وضعيفهم، فعندما تتوكّل على الله فسـيضعف في عينيك كلّ قوي.

ولو لم يكن في التوكّل على الله إلّا أنه طريق تحفُّه الطمأنينة لكفى.

قـال سـعيد بـن جبيـر: «التـوكل علـى الله عَزَّوَجَلَّ جمـاعُ الإيمان»[(١)].

والتوكّل على الله يكون ببذل الأسـباب وتفويض نتائجها إلـى الله، وأن تكـون مسـتعدًّا للرضا بـأيّ نتيجـة؛ لأن الله هو حسبك وكافيك وناصرك.

مسـك: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قـال: «**إنَّ المعونـةَ تأتي مِـن الله للعبد على قَـدْرِ المؤونة، وإنّ الصبر يأتي من الله للعبد على قَدْرِ البلاء**» رواه البزّار.[(٢)]

---

(١) شعب الإيمان (٢/ ٤٧٤).

(٢) مسند البزار (١٥/ ٣٢٧).

عدّدْ نعمَ الله عليك، ولن تحصيها

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٤]

قد تقول: إنني سألت الله أشياء لم يؤتِنيها بعدُ!

فيقال: إن السؤال يكون بلسانين، لسان الحال ولسان المقال.

والمسؤول بلسان المقال: هو كل ما سألته الله بلسانك الذي هو جارحة وعضو في فيك.

وأما المسؤول بلسان الحال، فهو كل ما تدعو حالُك إلى الحاجة إليه دون لسانك، كرزقٍ وتنشئة وصحة وحفظ، وغير ذلك مما لا يُحصى.

واللهُ تعالى إنما يعطيك ما تحتاجه حالُك وإن لم تسأله بمقالك.

كلّ ما أنت فيه مما تراه من نعيم وأوله هذا البصر الذي تقرأ به هذه الحروف، هو من النعيم الذي لم تسأله، وغيره كثير مما لو عددته فلن تحصيه.

لـو تفكّـرت ووازنت بين ما سـألت الله ولـم يعطِـك إيّاه، وبين ما أعطاك مما لـم تسأله، لوجدت البون شاسعًا. فتخيّل أن يقال: نسـبة ما سألت بلسان المقال مما لم تُعطَ، مع ما أُعطيت مما لـم تسأل بذلك اللسان، تُقدّر تلك النسبة بواحد من مليون، فسوف تقول: لقد آتاني الله كلّ ما سألت، وهذا الواحد لا ينبغي أن يُذكر.

فكيـف إذا كان هذا الواحد يقابل ما هـو أكثر من المليون والمليار.

ولذلـك تأمّـل كيف قـال الله في هذه الآيـة: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾.

عدّدْ نِعَمَ الله عليك، ولن تحصيها، ولن تستطيع أن توفيها حقّها من الشكر؛ فنعمة السمع خير من مال الدنيا كلّه.

وما رأيتُ شـيئًا في بداية اليوم بعد صلاة الفجر يبعث على الطمأنينـة والانشـراح مثـل عدِّ نِعَـمِ الله عليك، لا أقـول: نِعَمُ الله عليك في شـهادة أو وظيفة أو جاه، بل نِعَم الله التي تشـترك فيها مع الفقير والغني، والقـوي والضعيف، فتلك نِعمٌ واللهِ لا تُحصى.

ونعمـةٌ واحدة إذا كانت معك اليـوم فهي نعمة، فإذا بقيت معـك غدًا فهي نعمـة أخرى وهكـذا، فالنعمة الواحـدة تتكرّر عليك كلّ يوم، بل كل سـاعة فيكون بقاؤهـا نِعَمًا متعدّدة بعدد الساعات واللحظات، وحتى تعرف حقيقة ذلك ألا ترى أنّ من الناس من يُسلبها في لحظة، وكأنّه لم يعش في هذه النعمة قبل؟

وتأمّـل كيف ختم الله الآيـة بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ أي شـديد الظلـم، فليس بعادل وهـو يرى نِعَمَ الله عليه ثم لا يشـكره عليها، و﴿كَفَّارٌ﴾ أي شديد الجحود عندما ينكرها، ولا يرضى بها.

ثم هناك شيء آخر تجد نفسك تقرّ بمعناه، فلو أن شخصًا أعطاك مليونًا من غير سؤال منك! ثم طلبته ريالًا، فلم يُعطك، هل ستسخط عليه؟ أو ترضى بمنعه وتشكره على عطائه؟

لا شك أنك ستقول الجواب الثاني.

فكيف بالذي أعطاك ما لا يُحصى من النِّعم؟

بـل، وكيف بالذي لا يمنعك إلا والمنـع خيرٌ لك، لكنك لا تعلمه.

ولذلـك كن على يقين أنّ مَنْعَ الله خير، وعطاءه خير، وأنّ مـا آتاك هو خيرٌ مما منعك إيّـاه، وما منعك هو خير لك من أن يصل إليك.

واعلم أنّ منعَ اللهِ نعمةٌ خفيّة، وأن منعَه لأوليائه عطاء.

مسك: قـال رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا أَحَـبَّ اللهُ عَبْدًا حَمَاهُ الدُّنْيَا كَمَا يَحْمِي أَحَدُكُمْ مَرِيضَهُ الْمَاءَ**» رواه الحاكم.[1]

❋❋❋

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم (٤/ ٣٤٤) أي حماه مما يضرّ دينه من الدنيا وصوارفها.

بين الظالم والمظلوم

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم: ٤٢]

إن الله لا يأخذ الظالم إلا بعد أن يقيم عليه الحجة ويفسح له في المهلة لعلّه أن يتوب ويتحلّل ممن ظلمه.

فإذا تمادى في ظلمه بعد أن أملى الله له أخذه في أسوأ حالاته وقمّة طغيانه، قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ** عَزَّوَجَلَّ **يُمْلِي لِلظَّالِمِ، فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ**» ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢]»[(١)] فعندما يأخذه يشفي صدور المظلومين كما قيل: «إنما تندمل من المظلوم جراحُه إذا انكسر من الظالم جناحُه»[(٢)].

إن المظلوم المؤمن ينظر إلى الظالم وهو في غاية طغيانه

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (١٩٩٧/٤).

(٢) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، للراغب الأصفهاني (٢٧١/١).

أنّ له يومًا لن يذهب فيه حقٌّ كبيرٌ ولا صغيرٌ، وهذا يخفِّف على المؤمن من وقع الظلم على نفسه وحرّه في فؤاده، فهو يبرِّد حرّه باليقين التامّ، ويهوّن من وقعِ ألمِه بانتظار الوعيد القريب، قال شريح القاضي: «سيعلم الظالمون حظّ من نَقَصوا! إنّ الظالم ينتظر العقاب، والمظلوم ينتظر النصر»[1].

وقال ميمون بن مهران عند قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم: ٤٢]: «هي وعيدٌ للظالم، وتعزية للمظلوم»[2]

وقيل: «على الظالم أن يكون وَجِلًا وعلى المظلوم أن يكون جَذلًا»[3].

ويكفي المظلوم أنه مجاب الدعوة فيمن ظلمه وأن الله ينتصر لدعوته كما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، يَرْفَعُهَا اللهُ فَوْقَ الْغَمَامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَفْتَحُ لَهَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ،**

(١) التبصرة لابن الجوزي (١/ ٩٢).

(٢) تفسير الطبري (١٣/ ٧٠٤).

(٣) جذلاً أي فَرِحًا. محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء (١/ ٢٦٩).

وَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ: بِعِزَّتِي لَأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ»[1].

المؤمن يقرأ ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [القصص: ٤] فيرى أن هذه الآية بقدر ما فيها من الألم بما فعله فرعون ببني إسرائيل فإنه يرى ما بعدها فيه بشارة لكلّ مظلوم وطمأنينة لكلّ مستضعف، فقد قال الله تعالى بعدها: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [القصص ٥-٦].

فكم مكّن الله للمظلوم من ظالمه في الدنيا فأخذ حقَّ بيده، أو نكّل بالظلمة والمظلومون يرون فشفى صدورهم وأذهب غيظ قلوبهم ﴿ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾ [النساء: ٨٤].

وتأمّل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا ﴾ لا تظن أنَّ تركَ الظالم يظلم الناس ويعيث في الأرض ظلمًا أن الله غافل عنه، فهذا سوء ظنّ بالله؛ فالله يتركه مدّة حتى إذا أخذه جعله عبرة لكلّ من علم أمره، فيُنكّل الله به للمظلومين ويعظ به الآخرين.

---

(١) مسند الإمام أحمد (١٥/ ٤٦٣).

قيل لعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كان الرجل يُظْلَمُ في الجاهلية فيدعو على مَن ظلمه فيُجاب عاجلًا ولا يُرَى ذلك في الإسلام! فقال: هذا كان حاجزًا بينهم وبين الظلم، وإنّ موعدكم الآن الساعة، والسّاعة أدهى وأمرّ.(١)

مسك: روى ابن أبي حاتم في تفسيره أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لبعض صحابته ممن هاجر إلى الحبشة: «**أَلَا تُحَدِّثُونَ بِأَعَاجِيبَ مَا رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ؟**»، **فقال فتية منهم: بلى يا رسول الله، بينما نحن جلوس إذ مرَّت علينا عجوز من عجائز رهابينهم، تحمل على رأسها قُلَّةً من ماء، فمرَّت بفتى منهم فجعل إحدى يديه بين كتفيها، ثم دفعها فخرَّت على ركبتيها، فانكسرت قُلَّتُها، فلما ارتفعت التفتت إليه فقالت: سوف تعلم يا غُدَرُ(٢)، إذا وضع الله الكرسيَّ، وجمع الأولين والآخرين، وتكلّمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون، فسوف تعلَم كيف أمري وأمرُك عنده غدًا؟ فقال رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صَدَقَتْ، صَدَقَتْ، كَيْفَ يُقَدِّسُ اللهُ قَوْمًا لَا يُؤْخَذُ لِضَعِيفِهِمْ مِنْ شَدِيدِهِمْ؟**».

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري (٦/ ٤٠).

(٢) أي أيها الغادر.

خزائن الله لا تنفد

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحجر: ٢١]

خزائـن الله لا تنفد، ومُلْكُه على دوام عطائه لا ينقص، إلّا أنه سبحانه لا ينزّل من خزائنه إلا بقدر الحاجة، ولا يمنع نزول شيء منها إلا لحكمة.

وأنت في بطن أمّك يُغذّيك بوسـيلة لا يقوى عليها البشر، وبقَـدْر لا يزِنُـه إلا هـو، وعندما خرجت منها جعل لك شـرابًا قريبًا من بطنها، فيه كلّ الخصائص التي تحتاجها.

فأنت خرجت من بطنها وتجلس في حجرها وتشـرب من ثديها، فرِزْقُك في السنة الأولى كلّه في هذه الدائرة.

ثمّ كسـرةُ الخبز التـي تُبلّ لك، والأب الذي يسـعى لك، والأم التي تهتمّ بك، كلّ هذا من حفظ الله لرزقك وإيصاله لك.

وأنـت في كلّ ذلـك لا تعلـم موطـن الرزق وأسـبابه، ولا تعرف حاجتك إليه، لكن الله علِمه ونزّله لك بقَدرٍ معلوم.

وكذلك في مراحل حياتك كلِّها لن يُنزّل الله لك من الرزق إلا بالقدر المعلوم الذي أراده لك، فاطلب الرزق من الله وحده، وابذل السبب وأنت عزيز بين الناس في بذله، فقد هيأ لك وأنت صغير من الأسباب التي يُسعى لك فيها، وأنت لا تعلم، كلّ ذلك ليقول لك: رزقك مضمون قَدِرْتَ عليه أو لم تقدر عليه.

ولا يُعكّرنَّ عليك همُّ رزقِك غدًا استمتاعَك برزق اليوم؛ فالذي رزقك اليوم سيرزقك كلّ يوم.

مسك: عن حَبَّة بن خالد وسَوَاء بن خالد قالا: دخلنا على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يصلح شيئا فأعنّاه، فقال: «**لَا تَيْأَسَا مِنَ الرِّزْقِ مَا تَهَزْهَزَتْ رُءُوسُكُمَا، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ تَلِدُهُ أُمُّهُ أَحْمَرَ لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ ثُمَّ يَرْزُقُهُ اللهُ** عَزَّوَجَلَّ» رواه البيهقي.[1]

❀❀❀

(١) الآداب للبيهقي (ص: ٣١٤).

هل يضيق صدرك مما يقولون؟

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [الحجر: ٩٧]

أيُّ إنسانٍ سَوِيٍّ سيضيق صدره مما يقال فيه حتى لو كان رسولًا نبيًّا؛ لأن من لا يضيق صدره قد يكون بليدًا لا يشعر، أو أن ما قيل فيه صحيح فهو لا يبالي.

وحُقّ للنفوس الكريمة أن تضيق صدورها مما قيل فيها.

تأمّل ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ ﴾، أي أننا مطّلعون على باطن الأمور وظاهرها، نعلم ما حلّ في صدرك من ضيق، ونعلم ما قيل فيك من الكذب الصريح، فإذا كنا نعلم ذلك فخذ هذه الوصفة العلاجية لحلّ مثل هذه المشكلة التي لا يكاد يسلم منها أيّ صادق:

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩٨، ٩٩]

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ قل: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم، أكثر من ذلك ليشرح الله صدرك ويُعلي ذكرك، ويُعظم

أجرك، قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ»[1].

وتأمّل ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾، المراد كُن من المصلّين؛ لأن الصلاة مما يُستعان بها على أداء مهمّة الدعوة والرسالة والثبات على الطريق، وذلك يحتاج إلى الصبر وقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣]، لكن لماذا عُبّر عن الصلاة بالسجود وهو أحد أركانها؟

إذا ضاق صدر العبد فهو يحتاج إلى قريب يبث له همّه، وسميع يشكو له ما ألمّه، وليس هناك قُرْبٌ يُجلّي الهمّ إلا إذا كان القرب من الله، ولا شكوى تزيل الحزن إلا إن كانت الشكوى إلى الله ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، وفي الصلاة يكون العبد قريبًا من الله، وهذا أعظمُ قُربٍ وأنفعُ دُنُوّ، وأقربُ ما يكون العبد إلى الله وهو ساجد، وقد قال الله تعالى:

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وأن أعمال بني آدم وقولهم يوزن (٩/ ١٦٣).

﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ١٩﴾، وقال رسول الله ﷺ: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ**»[1].

وتأمّل ثانية ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، لم يقل (وكن ساجدًا)؛ لأن ﴿ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ تشعر بأنك لست وحدك على هذا الطريق، فإنك إنْ سجدت وكنت منفردًا فلست وحدك؛ فهناك غيرك ممن يسجد في السموات والأرض ولا يعلم عددهم إلا الله.

وتأمّل ثالثة ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، لم يقل (مع الساجدين)؛ لأنك إن صليت وحدك فأنت من الساجدين، وإن صليت مع الساجدين فأنت أيضًا من الساجدين، وهذا لا يتحقّق فيما لو قال: (وكن مع الساجدين) فإنه لا يمتثل المُصلِّي هذا الأمر إلا ومعه من يسجد مثله، ولذلك يُستنبط من هذا أن العبد لا يقتصر على صلاة الجماعة بل لا بدّ أن يكون له حظٌّ من صلاة السرّ وحده.

﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ٩٩﴾ اليقين هنا المراد به الموت.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود (١/ ٣٥٠).

إن الله تعالــى قــد خلقنا لعبادته، ومــدّةُ أداء عبادة الله هي مدّة بقائك في هذه الحياة، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢]

والعبــد لا ينبغي له أن ينشــغل بمــا يقول عنــه الناس، بل ينبغي أن ينشــغل بمــا خُلِق من أجله النــاس، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

عندمــا تكون غايتــك أن تبقى على العهد مع الله في العبادة حتى تموت، فإنّ ما قاله الناس فيك وما ســيقولونه لن يســتمرّ في تضييقه على صدرك، بل ســيمرّ كســحابة صيف عمّا قريب تنقشع.

ســيكون تأثيرها على صدرك تأثيرًا وقتيًّا يسيرًا؛ لأن قلبك مشغول بالأهمّ عن مثل هذا الهمّ.

تأمّل ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾، هو الذي يأتيك ولســت أنــت الذي تأتيــه، أنت الذي تنتظره، وليس هــو الذي ينتظرك، المــوت متوجّه إليــك، وأما أنت فينبغي أن تكــون متوجّهًا إلى الله.

مسك: قال رسـول الله ﷺ: «مِنْ خَيْرِ مَعَاشِ النَّاسِ لَهُمْ، رَجُلٌ مُمْسِكٌ عِنَانَ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، يَطِيرُ عَلَى مَتْنِهِ، كُلَّمَا سَـمِعَ هَيْعَةً، أَوْ فَزْعَةً طَارَ عَلَيْهِ، يَبْتَغِـي الْقَتْلَ وَالْمَوْتَ مَظَانَّهُ، أَوْ رَجُلٌ فِي غُنَيْمَةٍ فِي رَأْسِ شَعَفَةٍ مِنْ هَذِهِ الشَّعَفِ، أَوْ بَطْنِ وَادٍ مِنْ هَذِهِ الْأَوْدِيَـةِ، يُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَيُؤْتِي الـزَّكَاةَ، وَيَعْبُدُ رَبَّهُ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْيَقِينُ، لَيْسَ مِنَ النَّاسِ إِلَّا فِي خَيْرٍ» رواه مسلم.[1]

❁❁❁

(١) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والرباط (٣/ ١٥٠٣).

الحياة الطيبة، والعيش الكريم

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧]

ما تراه وتسمعه كلّ يوم من هدير المركبات، وضجيج المعدّات، وازدحام الطرقات، أعمال شاقّة، وأوقات مشغولة، وطاقات مبذولة، كلّ ذلك من أجل البحث عن عيش كريم، وحياة طيّبة.

العيش الكريم قد يتحقّق بذلك، وأما الحياة الطيّبة فلا!

الحياة الطيّبة أخبرنا الله أنها إنما تتحقّق بالعمل الصالح، وتكون للمؤمن والمؤمنة على حدٍّ سواء.

وفرقٌ بين الحياة الكريمة والحياة الطيّبة، فالغني قد يعيش حياة كريمة لكنّه قد لا يعيش حياة طيّبة، وأمّا الفقير فقد يعيشها.

قال الضحاك بن مزاحم: «من عمل عملًا صالحًا وهو مؤمن في فاقة أو مَيْسَرة فحياته طيّبة، ومَن أعرض عن ذكر الله فلم يؤمن ولم يعمل صالحًا فعِيشتُه ضَنْكَة لا خير فيها»(١).

---

(١) تفسير الطبري (١٤/ ٣٥٢).

وحقيقة الحياة الطيّبة في الدنيا التلذّذ بالطاعة، والاستغناء بالقناعة، والفوز والنجاة عند قيام الساعة.

إذًا الحيـاة الطيّبة ليسـت بكثـرة الأولاد والعقـار، ولا في السـياحة وتتبّع الآثار، ولا في السـفر والتنقّل بين الأقطار، ولا بالجلوس بين الخُضرة والأنهار!

الحياة الطيّبة، هي حياة المؤمن، عرف حقيقة الدنيا فزهد فيهـا، وعرف أنها دار حـرث وزرع والحصاد في الآخرة، فزرع وأحسـن الحرث، وتعاهد زرعه فلم يفسده، وأيقن أن الله يراه فأخلص له العمل، وعلم أنه سيلقاه فهو يشتاق وينتظر.

واعلم أن كلّ سعادة في الدنيا فهي سعادةٌ مؤقّتةٌ مغشوشة، إلا سـعادة المؤمن، فسـعادته حقيقيـة؛ لأنه قنوعٌ بقسـمة الله، شاكرٌ لما أعطاه وأولاه، صابرٌ على أقداره وبلواه، الآخرة عنده مصير، والدنيا تحديد مصير.

كلّ سعادة فإن لها ما ينغّصها مما لا يمكن تجاهله ولا سبيله إلى تخفيفه، إلا سـعادة المؤمن، فهو يحتسب هذه المنغّصات أجـرًا، ويدّخرها ليوم القيامة ذُخرًا، ويخفّفها عليها حسـن ظنّه بالله، لسان حاله «كل ما يأتي من الله فهو خير للمؤمن».

حياتـه طيّبـة في الدنيـا وإن ظنّه الناس علـى خلاف ذلك؛ فهـم لا يرون القناعـة التي في صدره، ولم يطّلعـوا على اليقين الذي في قلبه، هم لا يعلمون أن ركن الشـعور بطيب الحياة هو القناعة الصادقة واليقين الصالح.

مسك: أعظم ما يُطيّب حيـاة المؤمن والمؤمنة يقينهم بأن هنـاك حياة أخـرى هي أطيب من حيـاة الدنيا، اقـرأ تمام الآية السـابقة ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧]

❋❋❋

الله أرحم بخلقه منا

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾ [الإسراء: ١٥]

من رحمة المسلم أنه يخطر بباله أحيانًا حالُ بعض الكافرين ممن يظهر من حالهم الصدقُ مع الناس وتفانيهم في الحياة لتقديم الخدمة للآخرين، فيقول: إنْ مات هؤلاء كيف يدخلون النار وهم يعملون من أعمال الخير ما لا يفعله بعض المسلمين، ومثلهم المساكين الذين لا يؤذون أحدًا وإنما غايتهم في الحياة توفير لقمة العيش لأهليهم؟

أخي، اعلم أنّ الله أرحم بخلقه منا، واطمئنّ فلن يُدخل أحدًا النار إلا وقد بلغته رسالة الإسلام الحقّ فعلمها ثم أعرض عنها وكذّب بها وغرّته الحياة الدنيا فبقي على كفره بالله وبرسالة رسول الله، فإنّ الله ما أرسل الرسل إلا ليُقيْم بهم حجّته على خلقه، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٦٥﴾ [النساء: ١٦٥]، وكما قال رسول الله ﷺ:

«لَا شَخْصَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ اللهُ الْمُرْسَلِينَ، مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ» رواه الإمام أحمد.(١)

من بلغه الإسلام بصورة مشوّهة فهو كمن لم تبلغه الرسالة الحقّ، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [التوبة: ١١٥]، فإذا لم يتبيّن لهم ما يتّقون الله به فكأنّ الرسالة لم تبلغهم.

ولا تظنّ أن الله يُدخل النار من لم تبلغه رسالة الإسلام، فإنْ ظننت ذلك فقد ظننت بالله ظنّ السَّوء بأنه -سبحانه- يظلم عباده، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤٦].

ثم إنّ مَن بلغته رسالة الإسلام بحقّ، ثم ردّها فهو أخبث خلق الله وإنْ أحسن إلى الناس جميعًا.

وتصوّر معي: لو أن هناك رجلًا يحسن إلى الناس ويعقّ والديه كلّ يوم، هل تسمّيه محسنًا أو مسيئًا؟

---

(١) مسند أحمد (٣٠/١٠٦).

ستقول: هذا مِن أسوأ الناس.

فإنْ قيل لك: إنه يحسن إلى الناس!

فستقول: لا قيمة لإحسانه إلى الناس وهو يسيء إلى والديه.

وإذا كان الأمر كذلك فينبغي أنْ تعلم أنّ حقّ الله أعظم من حقّ الوالدين.

وما حقُّ الله على الناس؟

حقّ الله على الناس أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا.

فإن قلت: ما حال من مات ولم تبلغه رسالة الإسلام؟

فالجواب في مسك هذه الطمأنينة:

مسك: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَرْبَعَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ- يُدْلُون إلى الله بحُجّة -أي يذكرون حجّتهم لله-: رَجُلٌ أَصَمُّ لَا يَسْمَعُ شَيْئًا، وَرَجُلٌ أَحْمَقُ، وَرَجُلٌ هَرِمٌ، وَرَجُلٌ مَاتَ فِي فَتْرَةٍ، فَأَمَّا الْأَصَمُّ فَيَقُولُ: رَبِّ، لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمَا أَسْمَعُ شَيْئًا، وَأَمَّا الْأَحْمَقُ فَيَقُولُ: رَبِّ، لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَالصِّبْيَانُ يَحْذِفُونِي بِالْبَعْرِ، وَأَمَّا الْهَرِمُ فَيَقُولُ: رَبِّ، لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمَا**

أَعْقِلُ شَيْئًا، وَأَمَّا الَّذي مَاتَ فِي الْفَتْرَةِ فَيَقُولُ: رَبِّ، مَا أَتَانِي لَكَ رَسُولٌ، فَيَأْخُذُ اللهُ مَوَاثِيقَهُمْ لَيُطِيعُنَّهُ، فَيُرْسِلُ إِلَيْهِمْ أَنْ ادْخُلُوا النَّارَ، قَالَ: فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ دَخَلُوهَا لَكَانَتْ عَلَيْهِمْ بَرْدًا وَسَلَامًا» رواه الإمام أحمد.[١]

❋❋❋

(١) مسند أحمد (٢٦/ ٢٢٨).

يرزق الله المؤمن والكافر، والبرّ والفاجر

﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٠]

من أسماء اللهِ، الربُّ، الذي يُربّي خلقه، ويدبّر أمورهم.

وأقلّ ما يكون من التربية تدبيرُ أمر الرزق، وهذا الرزق لا يمكن أن يحجبه الله عن مخلوق إلا إذا جاء أجلُه؛ لأن اللهُ تعالى لا يخلق خلقًا فيضيّعه، ومن التضييع عدم الرزق.

يرزق الله المؤمن والكافر، والبرّ والفاجر؛ لأن ذلك من مقتضيات الربوبيّة ولذلك قال تعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٠]، محظورًا أي ممنوعًا عن خلقه.

يرزقهم ما يعينهم على عبادته، فإن لم يستعملوها في طاعته فستكون عليهم حجّة يوم القيامة، يُسألون عنها، ويُعَذَّبون بسببها.

في دعاء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي ذكره الله لنا في قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦]، قال ابن عباس: «كان إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يَحتجِرُها على المؤمنين دون الناس، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أيضا، فأنا أرزقهم كما أرزق المؤمنين، أأخلق خلقا لا أرزقهم! أُمتّعهم قليلًا، ثم أضطرهم إلى عذاب النار، ثم قرأ ابن عباس: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾»[1].

المؤمن لا يقلق من أمر رزقه، ما دام أن الله تكفّل به للكافر فكيف بالمؤمن! إلّا أن المؤمن يطلبه وهو مطمئنّ، وأما الكافر فيلهث وراء الرزق مع خوف واضطراب وهمٍّ وقلق وتضييعٍ لحقّ الله عليه.

الجميل في طلب المؤمن للرزق أنه يبذل السبب ويتوكّل على الله فينال رزقه ويشكر الله عليه فيؤجر.

والأجر رزق باقٍ أعظم من الرزق الذي نفد وانتهى.

---

(١) المعجم الكبير للطبراني (١٢/ ٣٨).

ولذلك ينبغي أن يكون سعي المؤمن لتحصيل الرزق الديني والأجر الأخروي الباقي أعظم من السعي للرزق الدنيوي الفاني؛ فالرزق الديني هو أعظم الرزق، وهو الذي به يتفاوت الناس في المكانة والمرتبة عند الله، فالمؤمن الفقير خير من الكافر الغني.

وتأمّل في سياق هذه الآية -ما قبلها وما بعدها- فإنّك تعرف ما ينبغي أن تهتمّ له وتعتني به: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء: ١٨ - ٢٢] فالرزق الذي ينبغي أن تحرص عليه وتهتمّ له، هو أن يرزقك الله رضاه والجنة، وأن تكون أفضل حالًا في درجات الآخرة، لا أن تكون الأفضل في الرزق الدنيويّ.

مسك: قال ابن القيم: «في الأثر الإلهي: خلقتُك لنفسي فلا تلعبْ، وتكفّلتُ لك برزقك فلا تتعب»[1].

❊❊❊

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص: ٣٠٤).

فلا تقل لهما أف

﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣﴾

[الإسراء: ٢٣]

برُّ الوالدين والإحسان إليهما من أعظم القربات التي أمرنا الله بها، والدليل على ذلك أن الله كثيرًا ما يَقرن حقّهما بحقّه في مواضع من القرآن، وهذا من رحمته تعالى بالآباء وحفظ حقّهم.

ومن رحمته تعالى بالأولاد أنه لا يكلّفهم ما لا طاقة لهم به في شأن البرّ والإحسان إلى الوالدين.

أحيانًا يكون أحد الأبوين أو كلاهما مُكثرًا على الابن حدّ الأذى، والابن حريصٌ كلّ الحرص على الإحسان إليهما، فلربما آذوه بكلمة أو كلّفوه بما لا يستطيع، فهنا مهما كان الإنسان في إقبال على البرّ فلا بدّ مِن أن يتخلّل نفسَه شيءٌ من الضَّجَر، فنبّهه الله إلى أن ذلك مما لا يؤاخذ عليه، وإنما يؤاخذ على القول، ولذلك قال له: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ لا تتضجّر

بالقول فتقول: أفّ، وهي أقل كلمة تقال عند التضجّر، فالله نهى عن التضجّر القولي لا التضجّر النفسي.

﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ هذا خطاب لمن تضجّر في نفسه، ولا يمكن أن يكون خطابًا لمن لم يتضجّر أصلًا؛ لأن من لم يتضجّر لا يقال له: لا تقل أفّ.

فالتضجّر بالقول مقدورٌ على دفعه، وأما التضجّر النفسي فإنه يقتحم على النفس ومن الصعب دفعه.

إذًا، اطمئن، لو شعرت بهذا الضجر أحيانًا، فلن يؤاخذك الله عليه ما دام أنك قد أمسكت لسانك عن التضجّر بالقول، وحرصت على أن تُطلِقه إلى القول الحسن، امتثالًا لقوله تعالى: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾، والقول الكريم كأنْ تقول لهما: أبشرا، غفر الله لكما، أنا في خدمتكما، لا حرمني الله منكما، ونحو هذا من الكلمات الطيّبة، كما قال سعيد بن المسيّب عند هذه الآية ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾، قال: «كقول العبد المذنب للسيّد الفظّ»[1].

---

(١) تفسير البغوي (٥/ ٨٦).

وهناك أمر آخر يبعث على الطمأنينة دلّت عليه آيةٌ بعد الآية المُعَنوَن بها، وهو أنه قد يجتهد المؤمن في الإحسان إلى والديه، فيقول كلمةً يريد بها الخير، فيَغضب والداه، وهو لم يرد أن يُغضبهما، ولا أن يسيء إليهما، بل ما كان يريد من كلمته تلك إلا الإحسان، لكن وقعت تلك الكلمة في غير موضعها، فحصل الغضب منهما أو من أحدهما، فهنا قال الله تعالى: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٥] ربُكم أعلم بما في نفوسكم إذ كنتم لا تريدون الإساءة إلى والديكم، وإنما أردتم الخير، لكن خانكم التعبير، أو فُهِمت تلك الكلمة منكم على غير وجهها، فلن يحاسبكم الله على الغضب الحاصل من الوالدين أو من أحدهما.

فاطمئنّ، لا الضجر النفسي ولا الكلمة التي لم تقصدها محاسبٌ عليها.

مسك: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ**» رواه البخاري.[١]

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الطلاق، باب الطلاق في الإغلاق والكره، والسكران والمجنون وأمرهما، والغلط والنسيان في الطلاق والشرك وغيره (٧/ ٤٦).

الباقيات الصالحات

﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ٤٦﴾

[الكهف: ٤٦]

مَـن مِنّـا مَن ليـس له أمـل، أو لم تمرّ به لحظـة صمت لم يَسبَح فيها خيالُه بآمال صادقة أو كاذبة؟

أكثرُ ما يَستغرق تفكيرنا عند لحظات الهدوء والصمت هي الأحلامُ والآمالُ والأمنيـاتُ، حتى إن أحدنا يعلم أن الأمنيات كما قيل: «رأس أموال المفاليس»، لا قيمة لها، إلا أن الإنسـان مع ذلك يُقطّع بها صمته ويُمتّع بها نفسه، وهو قد يرى أن تحقّقَ كثيرٍ منها في واقعه أشبه بالمستحيل، ولكنه كما قيل:

مُنًـى إنْ تكنْ حقّـًا تكـنْ أفضلَ المنَى
وإلاّ فقـد عِشـنا بهـا زَمَنـًا رَغْـدا

وفي الحكمة: ألذُّ مِن المُنى.

وكما قال الشاعر:

إِذا ازْدَحمَتْ هُمُومِى فِي فُؤادى

طَلبْتُ لَهَا المخارجَ بالتَّمَنّى[1]

فإذا كان التمنّي فيه مخرج للمهموم في بعض أحواله، فهناك آمال عظيمة ينبغي إشغال الفؤاد بها، وإنْ تحقّقت كانت خيرًا للمتمنّي من الدنيا وما فيها، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾.

والباقيات الصالحات هي الأعمال الصالحة.

تأمّل، لم يقل: (والأعمال الصالحات) كما هي العادة التي جرت في القرآن بوصف العمل بالصلاح، وإنما قال: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ أي، الأعمال الصالحات هي الباقيات. كلّ الأعمال تفنى وتذهب بزوال أهلها أو بفناء الدنيا إلا الأعمال الصالحة فهي باقية حتى في دار الآخرة، ولذلك قال تعالى: ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ والأمل دليل على البقاء، ولذلك

---

(١) هذا البيت، والحكمة والبيت الذي قبله ذكرها أبو هلال العسكري في جمهرة الأمثال (٢/ ٢٢١).

ناسـب أن تُوصف الأعمال الصالحـات بالباقيات الصالحات قبل ذِكْر الأمل.

عندمـا تعمل العمل الصالح وترجو ثوابـه مِن الذي بيده كلّ شـيء، وتُؤمّـل أن يعطيـك الله عليـه ما هو خير مـن الدنيا ومـا فيها، ثم تعلم أنه ليس بينـك وبين هذا العطاء المأمول إلا انتقالك من هذه الحياة، فأنت عندئذٍ قد أشغلت نفسك بأعظم أمـل وأصدق أُمنية، وربما أعطاك الله جُزءًا من أملك في الدنيا، فتعيـش جزءًا من تحقيق آمالك وأمنياتك، ومِن ذلك أن تعيش مطمئنًّا بحصوله عما قريب.

تأمّـل: ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ أي ثوابـه خيـر عظيم، والأمل أمل لا أفضل منه.

ثـم تأمّـل ثانية، لم يقل: (خيـرٌ ثوابًا وخيرٌ أمـلًا) بل قال: ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ عندمـا يكـون هـذا الثـواب وذلـك الأمـل عند الله فإنك لـن تخاف أن ينفد ذلـك الثواب، أو أن يمـوت ذلك الأمـل، فثوابك عند الـذي لا تنفد خزائنه، وأمَلُكَ لدى الحيّ الذي لا يموت.

ثم تأمّل ثالثة، لم يقل: (خيرٌ ثوابًا عند ربك وخيرٌ أملًا) أو (خيـرٌ ثوابًا وأملًا عند ربّـك) بل قدّم ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ على الثواب والأمـل، ليفيد الحَصْر، ومعناه أن حصول هذا الثواب وتحقُّق ذلـك الأمل عند الله لا عند غيـره؛ لتتوجّه بقصدك وطلبك إلى الله لا لأحد سواه.

هـذا هو الأمـل الذي تلتذّ بـه النفس، ويطرب لـه الفؤاد؛ لأنـه حاصل لمن انتظره بصدق، والمؤمـن المؤمِّل يرى أنه لا مستحيل في هذه الأمنيات والآمال.

مسك: قال ابن وهيب الحميري في قصيدة له:

وإنِّـي لَأرجـو اللهَ حتَّى كأنَّني

أرى بجميـلِ الظّـنِّ مـا اللهُ صانـعُ[1]

❋❋❋

(١) ذكر القصيدة ابن قتيبة في عيون الأخبار من دون نسبة، عيون الأخبار (٢/ ٣١٠) وذكر البيت المبرّد ونسبه للحميري، الكامل في اللغة والأدب (٢/ ٦).

أمرُ الله، لا أمرنا

﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ۝٨٢﴾

[الكهف: ٨٢]

هذه الآية يكاد يعرف قصتها كلّ مسلم؛ لأنه يقرأها كلّ جمعة، فنهاية القصة تبعث على الطمأنينة وتزيد من اليقين.

قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع الخضر ترشدنا إلى مسألة مهمّة، وهي اعتقاد أن الله لا يُقدّر شيئًا إلّا لحكمة.

ولخفاء هذه الحكمة يقع بعض الناس في متاهات، ومنها عدم الرضا، وأخطرها الخروج من الإسلام.

تأمّل، الحادثة الأولى من القصة فيها ذهاب مال بخرق السفينة، والحادثة الثانية فيها ذهاب نفس بقتل الغلام، والحادثة الثالثة فيها ذهاب جُهْد بدنيّ لبناء جدار في قريةٍ أهلُها أهلُ لؤم وبخل.

هكذا في ظاهر الأمر.

وأمـا في باطن الحِكْمة، فالسـفينة كانت لمسـاكين، وكان خَرْقُها خيرًا لهم؛ لِمَا في ذلك من حماية مالهم.

والغـلام قـدّر الله له أن يمـوت في الصِّغر لئلا يكون سـببًا لضلال أبويه بإيقاعهما في الكفر، فكم من ابنٍ كان من مُضلّات الفتن لوالديه.

وأمـا الجدار فبناؤه كان فضـلًا ظاهرًا لأهل القرية، ولكن كان في باطنـه حفظُ كنـزٍ ليتيمين، والكنز تحـت الجدار، وبناءُ الجدار يحفظه لئلا تصل إليه يدُ أحدٍ من تلك القرية المعروف أهلها بالبخل واللؤم.

فإذا علمت هذا فتفكّر فيما مرّ بك من مُنغّصات، فسـتجد أنّ عواقبها حميدة، وهذا من مقتضيات الإيمان بالقضاء والقدر وحسن الظنّ بالله عَزَّوَجَلَّ.

نعم، ليس عندنـا مثل الخَضِر يخبرنا بعواقب الأمور بهذه الصورة التي حصلت مع موسى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- ولكن عندنا ما هو أعظـم، عندنا اليقين بحكمة الله تعالى البالغة فيما قضى وقدّر، وفيما حكم وأمر، وإن غابت عنا.

نحـن في هـذه الحيـاة نؤمـن بوجـود حكمـة مـن بعض المخلوقيـن في أمـر ما، وإن كان هـذا الأمر ممـا يُنغّص علينا، لكننا نصبر؛ لأن العاقبة معروفة لدينا وإن كنا نجهل متى تكون، إلّا أننا نعلم كيف تكون.

وإليك هذا المثال: هل سِـرتَ على طريق سـريع في سفر طويـل، وفي أثنـاء الطريـق وجدت مطبّـاتٍ ولافتـاتٍ تُفيد أن الطريق فيـه إصلاحات، ولذلك يلزمك أخـذ الحيطة والحذر والاتجـاه إلـى المسـار البديل، وهو مسـار ضيّق، تسـير عليه ببطء، ويزداد فيه حذرك؟

كلنا مرّ بهذه الحالة، وكلنا يتّبع تلك التعليمات، وهو يعلم أن السير على الطريق البديل لن يستمرّ، وسيرجع للطريق السريع.

تخيّـل معي لو كان معك شـخص وقبل أن تنتقل لتحويلة الطريـق البديل قال: هذا العمل الذي يُعمل عبث! فليس هناك إصلاحات ولا أخطار من الطريق الآخر!

فسـوف تردّ عليه قائـلًا: إنّ كلامك هذا هـو العبث؛ لأننا لـم نَعْهَد من هـؤلاء العاملين أن يصنعوا مثـل هذا التحويلات والطـرق البديلـة عبثًا؛ فإنهم لا يصنعونهـا إلا لإصلاح الطريق

الرئيس، وللمحافظة على أرواحنا وسياراتنا.

ألا تلاحـظ أنك دافعـت عنهم، واعتقـدت وجود حِكمة ومصلحـة مـن فعلهم، وأنت ربمـا لم تـرَ إصلاحاتهم للطريق الرئيس، والأخطار التي فيه!

وحجّتك: أننا لم نَعْهَد عليهم عبثًا في مثل هذا قطّ.

فكيـف بالعليم الحكيم سـبحانه؟ الذي ما خلق شـيئًا في هـذا الوجود عبثًا، فهـو أحقّ أن نعتقـد هذا بقلوبنـا، وتُصدّقه جوارحنـا فـلا نتسـخّط بألسـنتنا، ولا نضرب الخدود ونشـق الجيوب بأيدينا.

مسك: قال الشاعر:

وَكَـمْ للهِ مِـنْ لُطْـفٍ خَفِـيٍّ ... يَـدِقُّ خَفَاهُ عَـنْ فَهْـمِ الذَّكِيِّ

وَكَمْ يُسْـرٍ أَتَى مِنْ بَعْدِ عُسْرٍ ... وَفَـرَّجَ لَوْعَةَ القَلْبِ الشَّـجِيِّ

وَكَـمْ هَـمٍّ تُسَـاءُ بِـهِ صَبَاحًا ... فَتَعْقُبُـهُ المَسَـرَّةُ بِالعَشِـيِّ

إِذَا ضَاقَتْ بِكَ الأَسْبَابُ يَوْمًا ... فَثِقْ بِالوَاحِـدِ الأَحَدِ العَلِيِّ[1]

❊❊❊

(١) مجموعة القصائد الزهديات، لعبد العزيز السلمان (١/ ٤٦٨).

حبُك لله حبٌ لن يذوق القلبُ ألذَّ منه

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾ [مريم: ٩٦]

الودّ بمعنى المحبّة، بل أبلغ! ألا ترى أنك تقول: أحبُّ فلانًا وأحبّ الطاعة، وتقول: أودُّ فلانًا، لكنك لا تقول: أودُّ الطاعة.

فالودّ معنى أخصّ وأعمق من المحبّة.

الودّ لا يكون إلا بين الأنفس، لا يكون بين نفس وجماد.

ولذلك سمّى الله نفسه الودود، ولم يسمِّ نفسه المُحِبّ؛ لأن الودّ فيه معنى الحبّ وزيادة.

والودّ الذي سيجعله الرحمن للمؤمنين نوعان:

النوع الأول: أن الله يودّهم، أي: سيجعل لهم منه ودًّا فيحبّهم، ويتودّد إليهم بالنِّعم الدينية.

النوع الثاني: أنهم يودّ بعضُهم بعضًا، أي: سيجعل الله بينهم ودًّا.

طُبع الإنسان على الرغبة في أن يُحَبَّ، فإذا كان الحبّ من عباد الله المؤمنين فهو أعظم حبّ من مخلوق لمخلوق؛ لأنه الحبّ الذي لا ينقطع، والحبّ الذي ليس فيه شائبة من شوائب الدنيا، وهذه المحبّة هي التي ينتفع بها المتحابّون، بخلاف الحبّ الذي يكون في غير المؤمنين، فإنه حبّ في الدنيا للدنيا، ثم يوم القيامة ينقلب إلى بغضاء وعداوة، قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٦٥، ١٦٦] والأسبابُ في هذه الآية هي المودّةُ التي كانت بينهم في الدنيا.

وأعظمُ من حبِّ المخلوق للمخلوق حبُّ الخالق للمخلوق، وهو الحبُّ الذي لا ينتهي، ولا يكون بعده للعبد إلا ما يشتهي، ولا يشتهي إلا ما يحبّ الله له ويرتضي.

وقبل أن يحبّك الله لا بد أن تكون محبًّا له، صادقًا في حبّك.

وحبُّك لله هو الحبّ الذي يعطيك ولا يأخذ منك، ويُغنيك عن كلّ حبّ، ويؤنسك من كلّ وحشة، ويجمع لك ما تشتّت منك، وتجد به طمأنينة لا تُوصف، وهو الحبُّ الذي يُزهّدك في الدنيا ولو كانت في يدك، ويُشعرك بالغنى ولو لم تجد قوت يومك، ويقرّبك إليه ولو ابتعد الناس عنك، هو حبٌّ لا يزيدك إلى الله إلّا شوقًا، حبٌّ لن يذوق القلبُ ألذَّ منه، ولن يرضى بأقلّ منه.

وقد رُوِي عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَحِبُّوا اللهَ مِنْ كُلِّ قُلُوبِكُمْ**»[1].

إذا أحبّك الله وجعل أولياءه محبِّين لك فلن تستوحش وإن لم تكن بينهم.

وإنْ أحبّك غير أولياء الله ولم يحبّك الله فلن تأنس بهم ولو كنت بينهم.

الحبّ الحقيقي، هو الحبّ النافع، الذي يبقى معك ولك حتى بعد الممات.

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٥٠١).

مسك: أتى النبيَّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلٌ، فقال: يا رسول الله دُلَّني على عملٍ إذا أنا عملتُه أحبَّني الله وأحبَّني الناس؟ فقال رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ الله، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاسُ**» رواه ابن ماجه.(١)

❋❋❋

(١) سنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب الزهد في الدنيا (٢/ ١٣٧٣).

ماذا بعد حبِّ الله لك؟

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩]

ما منّا أحدٌ وإن علت مرتبتُه وقوي إيمانه إلا وهو يُحِبُّ أنْ يُحَبَّ، ولذلك تجد من يلتمس حبَّ الناس بالمعروف، ومنهم من يلتمسه بتلميع صورته في وسائل الإعلام وينفق في ذلك الأموال، ومنهم من انتكست فطرته وانقلبت المفاهيم لديه فهو يطلب حبَّ الناس بما يُبَغِّضهم فيه!

وأخصر طريق لحبّ الناس لك أن تُحبَّ ما يُحبّه الله، فإنّك إذا أحببت ما يحبّه الله أحبّك، وإذا أردت أن تكون ممن يحبّهم الله فتقرّب إليه بالنوافل بعد الفرائض، قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله قَالَ:..وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ**» رواه البخاري.[1]

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع (٨/ ١٠٥).

وإذا أحبّـك الله عطف قلوب عباده على محبّتك، فيُحبّك عبـادُه وإن لم تقـدّم إليهـم معروفًا، فهذا موسـى عَلَيْهِ السَّلَامُ قال الله فيـه: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طـه: ٣٩] أي حبّبتـك إلى عبادي، فلذلك ما رآه أحد إلا أحبّه، وهكذا المؤمن التقي، فإنّ عباد الله يحبّونه بقَدْرِ قربه من الله، وقربهم هم من الله.

وهـذا النوع مـن الحُبِّ يتسـلّل إلـى قلوب العبـاد بدون استئذان وبدون مقدّمات.

فـإذا وجدت ذلـك مـن العباد تجاهـك فهذا مـن عاجل البشـرى لـك -بإذن الله- فاحمـد الله وأبقِ حبّهم لك مسـتمرًّا باستمرارك بالتقرّب إلى الله.

وميزة هذا الحبّ أنه لا يمكن لحاسد أن ينزعه، ولا لحاقد أن يمنعه، ولا لمعاند أنْ يرفعه، وإنَّ إزالة جبلٍ من أصله أهونُ مـن إزالة محبّة المؤمن من قلوب النـاس؛ فمحبَّة الناس للعبد رحمةٌ من الله، وقد قال الله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٢]

أرسـى الله الجبال في الأرض، وإذا أحبّ عبدًا أنزل محبّته في الأرض، فـإذا قامت السـاعة زالـت الجبـال، وبقيت محبّة

العبد في قلوب الرجال.

مسك: قال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الأَرْضِ» رواه مسلم.(١)

***

(١) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبدا حبّبه لعباده (٤/ ٢٠٣٠).

ما أقوى القلوب بالله!

﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ٧٢﴾ [طه: ٧٢]

من قائل هذه الكلمات، ولمن؟

قالها السحرة الذين جمعهم فرعون.

وقالوها لفرعون يتحدّونه ويستخفّون به وبما يملك من عقوبة!

يقولون: أنت وعقوبتك لست بشيء، أنت وهذه الدنيا بلا قيمة عندنا، وليس لك سلطان علينا إلا في هذه الدنيا!

سحرة فرعون الذين دعاهم لينتصر بهم على موسى وهارون يقولون له هذا الكلام! فأصبح الشأنُ كما يُقال: انقلب السحر على الساحر.

سحرة فرعون الذين كانوا يقولون طمعًا فيما عند فرعون: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ٤١﴾ [الشعراء: ٤١] صاروا يقولون: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ٧٢﴾ [طه: ٧٢]

يقولون هذا القول العظيم عند فرعون وملَئه!

ما أقوى القلوب بالله!

لقد جاءوا قبل ذلك راغبين في جائزة فرعون كما قال الله: ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [الأعراف: ١١٣، ١١٤]

وتأمّل: ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ أي: لكم ما تريدون من الأجر، وزيادة أنني أقرّبكم وأجعلكم من خاصّتي وجلسائي!

ولا يطمع أهل الدنيا أن يحظوا بشيء من متاعها بأعظم من أن يكونوا مقرّبين من ملك من ملوك الدنيا؛ لأنه بقربهم منه ينالون مطامعهم الأخرى من الدنيا.

فما الذي حصل؟

لقد رأوا آيات الله على يد موسى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- فعلموا أنّه رسول ربّ العالمين، وعلموا أنّ فرعون ليس بشيء، وأنّ النفع الدائم والضرّ بيد الله تعالى.

وهذا الانتقال السريع من السِّحر إلى البِرّ، ومن الكفر إلى الإيمان، لا يكون إلا باليقين التامّ والإيمان الصادق، الذي يحمل صاحبَه على بيع نفسه ليشتري ما عند الله، وهذا لا يكون إلّا من نفسٍ تمكّنت الطمأنينة منها حينما توجّهت إلى بارئها.

وحينها فكلّ المطامع الدنيويّة تضمحل في جانب رجاء الله وحده، وكل المخاوف تتبدّد في جانب الخوف من الله وحده.

تأمّل، لمّا آمنوا لم يقولوا: أمنا بربّ العالمين وسكتوا، بل قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٢﴾ [الأعراف: ١٢١، ١٢٢] حتى لا يظنّ اللعين أنهم يقصدونه عندما قالوا: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ لأنه كان يقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ٢٤﴾ [النازعات: ٢٤] وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] فحتى لا يَظنّ ذلك زاد السحرة الذين آمنوا: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٢﴾ [الأعراف: ١٢٢].

لما آمن السحرة واطمأنوا بما جاء به موسى، وهدّدهم فرعون بتصليبهم وتقطيع أيديهم وأرجلهم وحرمانهم جائزته قالوا: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ٧٢﴾ [طه: ٧٢] أي، لن نختارك

ونترك الحقّ، ولن نعبدك ونترك عبادة الله، فهذا لن يكون، وافعل بعد ذلك ما تشاء، قَطِّعنا وصَلِّبنا ومَثِّلْ بنا، فليس في يدك إلا ذلك في الدنيا، والدنيا ليست من مطالبنا، ولا مِن آمالنا بعد أنّ آمنّا.

الذين قالوا هذا، ليس لهم في الإسلام تاريخ طويل، ولا وُلِدوا على الإسلام، هؤلاء ليس لهم في الإسلام إلا ساعة من نهار، لكنه الإيمان إذا وقر في القلب، واليقينُ إذا تمكّن من المؤمن، فكأنّه في القلب منذ مئات عام، ولا يزيله خوفٌ من ظلومٍ طاغية، ولا مطامع دنيوية فانية.

هل تعلم أنّ الموت الذي يفرّ منه الناس هو أعظم هدية قدّمها فرعون لهؤلاء؟

فإنه لم يكن بينهم وبين الجنة إلّا أن يموتوا، والموت حاصل لا بدّ منه، ولذلك تأمّل ماذا قالوا قبل أن يقتلهم اللعين: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه: ٧٤ - ٧٦].

هي حياتان، حيـاةٌ قصيرة فانية، وحياةٌ كبيرة باقية، فأنزَلوا كلّ حيـاة منزلتهـا، وأعطوهـا قَدْرَهـا، فباعوا الدنيا واشـتروا الآخرة.

مسك: قـال ابن عباس عـن سـحرة فرعون: «كانـوا أول النهار سَحَرَة، وفي آخر النهار شهداء بَرَرَة»[1].

❋❋❋

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ٣٠٣).

ولكن لا تتأخر

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ١٢٢﴾ [طه: ١٢١ - ١٢٢]

خُلِقَ أبونا آدم من طين، ونحن من طينته وطبعه، وليس أحدٌ منا معصومًا من الخطأ.

وربنا يذكر لنا قصة أول معصية بشريّة، لا لنجترئ على معصيته، ولكن لئلا نيأس من رحمته وعفوه وهدايته.

فهذا أبونا آدم، ترك أمر ربّه فعصاه، ثم أحسّ بعظم الذنب فطلب عفوه ورضاه، فقبل الله توبته فقرّبه واجتباه، وأحسن حاله بعد التوبة فهَداه.

أخي، المعصية مهما عظُمت فعفو الله أعظم، والذنب مهما كان كبيرًا فرحمة الله أوسع.

واعلم أنّ أعظم من الذنب أنْ تظنّ أنّ الله لا يغفر الذنب.

وأنّ مِن الذنب أنْ تظنّ أنّ الله إذا غفر الذنب فلن يحبّ العبد.

وأنّ مِن الذنب أنْ تظنّ أن الله لن يهدي العبد ويجتبيه بعد التوبة إليه.

واعلـم أن الله يحـبُّ العبد إذا تاب، يحبّـه وكأنه لم يذنب قبل ذلك.

تأمّـل: ﴿رَبَّهُۥ﴾ ذكرها الله عند ذكـر المعصية ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ وذكرهـا عند ذكـر التوبة والاجتبـاء ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ وفي هـذه إشـارةٌ ربّانيّـةٌ لطيفـة لنفوسـنا المقصّرة الضعيفـة، وهي أن الله لم يتبرّأ من آدم حينما عصاه، ولم يُهمله عندمـا تـاب إليـه والتمس رضـاه، بل سـمع نجـواه فقبل منه واجتبـاه، فربُّك الذي تعصيه هو ربُّـك الذي يتوب عليك، فلا تيأس، ولكن لا تتأخّر.

وتأمّـل ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢)﴾، تأمّـل المقابلـة القرآنيـة بين المعصيـة والتوبة، وبيـن الغِواية والهداية، التوبة حلّت محـلّ المعصية، والهداية حلّت محلّ الغِواية؛ لأن الغِواية هي سلوك غير طريق الهدى.

أخي، كلّنا ذوو أخطاء وذنوب، لكن الله يمُنّ علينا بالسـتر كثيـرًا لعلّنـا أن نتـوب، فإذا سـتر الله عليـك فكأنه يقـول لك:

عُدْ لإصلاح حالك من أخطائك وكأنك لم تفعل هذه الأخطاء من قبل، عُدْ فإنه لم يعلم بك أحدٌ من الناس بعد، عُدْ وأصلح من حالك فما زال لديك فُرصة ما دام سترُ الله عليك سابغًا، بادِرْ قبل أن يُكشف السِّتر.

وإنَّ مِن توفيق الله لك بعد المعصية أن تبادر إليه بالتوبة، وإذا غويت أن تسأله الهداية بصدق.

وإذا بُليت بمعصية، فصرت تغلب نفسَك مرّة، وتغلبك نفسُك مرّة، وأنت مع هذا لم تستسلم، فاعلم أنك في طريق الجهاد الصحيح، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، سيأتي اليوم الذي تنتصر به على الشيطان وتصرعه صرعة لا يقوم عليك بعدها.

وكم من معصية كانت سببًا لتوبة صادقة وسيرة صالحة؛ فقد تكون حال العبد بعد التوبة خيرًا من حاله قبل تلك المعصية، وقد قيل: كم من معصية أدخلت صاحبها الجنة!

نعم؛ لأنه بعد أن تاب منها، كلما تذكّرها أحدث توبةً واستغفارًا وعملًا صالحًا.

مسك: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ، كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ**» رواه ابن ماجه.[1]

❊❊❊

(١) سنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة. (٢/ ١٤١٩).

لا تزدروا نعمة الله عليكم

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه: ١٣١]

آفـة هذا الزمن تتبّع يوميات المترفين، والنظر في حالاتهم، مما ولّد عند كثير من الناس نوع اضطراب في حياتهم، وتسـبّب في رحيل القناعة من قلوبهم، وعـدم الرضى برزقهم، فالزوجة مهمـا قدّم لهـا زوجها لا تقتنـع إلا بما رأته عنـد فلانة التي لا تعرفها، والابن مهما وفَّر له الأبوان من المقدور عليه لا يرضى مـا لم يكن بالقَدْر الذي لدى فـلان، وهكذا تكون البيوت غير مطمئنّة، كلٌّ يتمنّى أن يعيش في بيت غيره.

ربُّنا سبحانه يتعاهد عباده بالنصح، فمرّة يأمرهم وينهاهم، ومرّة يأمر رسـوله ﷺ وينهاه لنتأسـى به، فها هو تعالى يقـول لرسـوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طـه: ١٣١] ينهـاه مـن أن يطلق عينيـه لينظر إلى متـاع أهل الدنيـا وزينتهم فيها،

لئـلا يحملـه ذلك علـى عدم الالتفـات إلـى رزق الله تعالى له فيترك شكره عليه.

عندما يلتفت العبـد إلى متاع أحد المُنَعَّمين في الدنيا ربما حسده، وربما أشـغله عن شكر نعمة الله عليه، وربما ثقّل عليه طاعـة ربّـه، ولذلك أرشـد الله بعد هـذه الآية بما يشـغلك عن الالتفات إلى مثل هـذه المُتَع الزائلة فقال: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [طـه: ١٣٢].

انشغالك أنت وأهلك بالصلاة والقناعة برزق الله خيرٌ لك من الانشغال بما متّع الله به بعض الناس.

يقـول أحدهم: خرجت مرّة أنا والأهل من شـقتنا لنقضي بعض الوقت في التفسّـح في بعض الأحياء بجانب حيّنا، فمررنا بحـيٍّ فيه بيـوت جديدة وقصـور معروضة للبيـع، فقلنا: لمَ لا ندخلهـا ونتفرّج فيها؟ ففعلنا، ندخل هذا ونخرج منه، وندخل ذلك ونخـرج، وهكذا حتـى انتهى الوقت المحدّد لفسـحتنا، فرجعنا لشـقتنا، فرأيناهـا أضيَق مما كنت عليه قبل سـاعة، بل لم تكن ضيقة قبل ذلك في أعيننا، ثم علانا شيءٌ من الكآبة التي

سببها أمنيات لم تُخلق إلا تلك الساعة، عرفت حينئذ أننا غفلنا عن العمل بهذه الآية، ولو أننا عملنا بها وعملنا بوصية رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَا ضاقت شقتنا في أعيننا ولَمَا علتنا تلك الكآبة، لكنها دروس من الحياة لنعرف ثمرة العمل بوصايا الله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ما وصية رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك؟

مسك: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**انْظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ**»[1].

***

(١) صحيح مسلم، كتب الزهد والرقائق (٤/ ٢٢٧٥).



الإيمان والإسلام هما الأمان من الفزع الأكبر

﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٣]

كلّما مرّ بك فزع من مفزعات الدنيا فتذكّر الفزع الأكبر واستعذ بالله منه؛ فكلّ مفزعات الدنيا لو اجتمعت على قلب رجل واحد لكانت أقلّ فزعًا من الفزع الأكبر يوم القيامة.

عندما يُنفخ في الصور النفخة الأخيرة، ويرى الناس أن البعث بعد الموت أصبح عين اليقين، فحينئذٍ يفزع الكفّار فزعًا كبيرًا؛ لأنّ كلّ ما أُخبروا به في الدنيا سيصبح عين اليقين.

لا فزع أكبر من هذا الفزع، لكن أهل الإيمان منه آمنون.

تأمّل قال: ﴿ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ إشارة إلى أن هناك مفزعات أخرى لكنها لن تحزنهم ما دام أنّ الفزع الأكبر لا يحزنهم.

ولماذا يفزعون وهم قد كانوا في الدنيا يستعدّون لهذا اليوم! ولماذا يفزعون والملائكة تتلقّاهم كما قال الله تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ تتلقّاهم بالبِشر والبشارة، وتأخذ

بأيديهم إلـى الأمان والاطمئنان، وتقـول: ﴿ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾، تأخذهـم الملائكـة وُفـودًا إلى الله، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [مريم: ٨٥] تأخذهـم إلـى جنّـة الأمـان، فكلّ الوفـود التـي علمناها في الدنيـا تُسـتقبل وتودّع، ولكـن أهل الإيمـان في الآخرة وفدٌ يُستقبل ذلك يوم ولا يودّع.

وإذا أردت الأمـن والأمـان مَـن الفزع الأكبر يـوم القيامة فعليـك بالإيمـان والإسـلام؛ فإنّ الأمـان لا يكـون إلا لأهل الإيمان، والسلامة لا تكون إلا لأهل الإسلام.

ومن خاف في الدنيا من يوم الحساب فلن يخاف في الآخرة من يوم الحساب.

مسك: قال الله عَزَّوَجَلَّ: **«وَعِزَّتِي لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَأَمْنَيْـنِ، إِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَـا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَـةِ، وَإِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أخفته يوم القيامة»**[1].

(١) حديث قدسي رواه ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. صحيح ابن حبان (٢/ ٤٠٦).

كُن مؤمنا ليدافع الله عنك

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨]

كم من الطمأنينة التي تتسلّل إلى قلب المؤمن وهو يتدبّر هذه الآية! كيف لا، والله -لا غيره- هو الذي يدافع عن الذين آمنوا.

دفاع الله عن المؤمن أصدقُ من دفاع قريب مُشفق، وأقوى من دفاع سلطانٍ قويّ.

دفاع الله عن عبده المؤمن قد لا يخطر ببال المؤمن كيف يكون، ومتى يكون، وأين يكون، فهو أعظم من كلّ الصور التي يتخيّلها المؤمن.

قد يكون في وقت لا تعلم به، وقد يكون بصورة لم تحلم بها، وقد يكون في موضع لم تتوقّعه.

ومن صور دفاع الله عن المؤمنين: أنه عند المصائب يُلهمهم أوسع الصبر.

وعند مكر الأعداء يُعدُّ لأعدائهم أشدّ المكر.

وفي شأن العاقبة يجعل عاقبة أوليائه أعظم النصر.

هذا غير ما ينتظرهم في الآخر من عظيم المثوبة والأجر.

تأمّـل ﴿يُدَافِعُ﴾ جاء بالفعل المضـارع ليدلّنا على التجدد والحـدوث، أي أنّ دفـاع الله حاصل كلّ وقـت، ويتجدّد لكل مؤمن، فكُن مؤمنًا ليدافع الله عنك، وكفى بالله مدافعًا.

وبقدر إيمانك يكون دفاع الله عنك.

مسك: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ**» رواه البخاري.[1]

❊❊❊

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع (٨/ ١٠٥).

قد يكون الخير في طيّات الشر المظنون

﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ [النور: ١١]

عائشة أمّ المؤمنين الصديقة بنت الصديق تُرمى بالزنى، ورسول الله ﷺ يُتّهم عرضُه، والمدينة يسودها الهمّ والحزن؛ وضِباعُ المنافقين تنهش في لحوم المؤمنين!

هذا الشرّ المظنون يحمل في طيّاته خيرًا كثيرًا؛ ألا ترى أن الله قد برّأ البريئة، وشفى صدور المؤمنين بظهور الحقيقة، وفضح ما يخفيه المنافقون شرُّ الخليقة.

وهذه الآيات تُتلى منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة، وإلى قيام الساعة، تُنادي ببراءة أمِّنا عائشة، وتعطي الدروس والعبرَ الواضحة، وتدلّ العاقل على براهين العدل والفضل الساطعة، وترشد للآداب والأخلاق النافعة، ليتأدّبَ بها كلّ مؤمن ومؤمنة يرجون الله والدار الآخرة.

المؤمن ينظر في الشر الذي قُدِّر أن في طيّاته خيرًا مستورًا، ولُطفًا خفيًا.

فهو يصبر على البلاء فيُؤجَر.

وينتظر الفَرَج فيَظْفَر.

ويظنّ بربّه الحِفظ وأكثر.

وهـو عند كل مكروه يسـمع نداء خفيًّا مـن قلبه المطمئنّ بالإيمان ووعد الرحمن: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١٦].

فهذا يوسـف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، بعد ما حصل له من حسد إخوانه، والتفريـق بينـه وبيـن أبيـه، وإلقائـه في البئـر، واتّهامـه بـإرادة الفاحشـة، وطول لبثه في السـجن، قال في آخر القصة: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [يوسف: ١٠٠] وهكذا المؤمن، فهو يرى أنّ في كلّ مـا قـدّر الله عليه لُطفًا به، ويعلـم أن ألطاف الله تُحيط به حتى فيما يكره.

مسك: حادثـة الإفك قصّتُهـا مبكية، وفيها مـن الدروس والعِبر مـا لا ينبغي لك أن تفوّتها، اقـرأ الحادثة واطّلع على ما كُتِب فيها من فوائد.

ومن روائع ما قالته عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بعد أنْ نزلت الآيات في تبرئتها: «وَاللهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ اللهَ مُنْزِلٌ فِي شَأْنِي وَحْيًا يُتْلَى، لَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحْقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللهُ فِيَّ بِأَمْرٍ، وَلَكِنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللهُ بِهَا، فَوَاللهِ مَا رَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَجْلِسَهُ، وَلاَ خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ، حَتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ» رواه البخاري.[1]

❋❋❋

(١) صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضًا (٥/ ١٢٠).

لا تتأخر عن التوبة فتخسر

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]

مهما قدّم العاصي رِجْلًا وأخّر أخرى في التوبة، فإنه مع هذه الآية ليس أمامه إلا أن يُثَبِّت رجله، إما في تقديمها وإما في تأخيرها.

وليس بعد هذه الآية إلا توبة ناصحة أو عقوبة فاضحة.

تخيّل أنك تعثّرت في دراستك الجامعية سنوات، ولولا هذا التعثّر لبقي لك عن التخرّج فصل دراسي، وفجأة صدر مرسومٌ جامعيّ: كلّ طالب متعثّر يعترف بتقصيره فيما مضى ويجتهد في هذا الفصل وينجح، فسوف نعتبره ناجحًا في السنوات الماضية، وكأنه لم يتعثّر.

طبعًا هذا لا يكون في حياتنا، ولن يكون.

كلُّ من تتعامل معهم إذا أخطأت فعفوا عنك قالوا: تعال لنفتح صفحة جديدة، إلا الله، فليس هناك صفحة جديدة، بل صفحتك نفسها السوداء ستُمحى لتصير صفحة بيضاء، فالسيئات تتحوّل إلى حسنات، والحسنات تتضاعف إلى العشرات والمئات.

الله عندما يعرض عليك التوبة بهذا العرض العظيم هو يقول لك: أنا أحبّ التوبة، وأحبّ التائبين، فلا تتأخر فتخسر، وإذا تُبت فأبشر ولا تتضجّر.

الذي يتأخر عن التوبة قد فوّت على نفسه عرضًا كبيرًا من العليّ الأكبر.

مسك: عن سَلَمَة بن نُفيل، قال: جَاءَ شَابٌّ، فَقَامَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ بِأَعْلَى صَوْتِه: يَا رَسُولَ الله، أَرَأَيْتَ مَنْ لَمْ يَدَعْ سَيِّئَةً إِلَّا عَمِلَهَا، وَلَا خَطِيئَةً إِلَّا رَكِبَهَا، وَلَا أَشْرَفَ لَهُ سَهْمٌ فَمَا فَوْقَهُ إِلَّا اقْتَطَعَهُ بِيَمِينِه، وَمَنْ لَوْ قُسِّمَتْ خَطَايَاهُ عَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَغَمَرَتْهُمْ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَسْلَمْتَ؟» أَوْ: «أَنْتَ مُسْلِمٌ؟» قَالَ: أَمَّا أَنَا، فَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، قَالَ: «اذْهَبْ، فَقَدْ بَدَّلَ الله سَيِّئَاتِكَ حَسَنَاتٍ» قَالَ: يَا رَسُولَ الله، وَغَدَرَاتِي وَفَجَرَاتِي؟ قَالَ: «وَغَدَرَاتُكَ وَفَجَرَاتُكَ» ثَلَاثًا، فَوَلَّى الشَّابُّ، وَهُوَ يَقُولُ: الله أَكْبَرُ، فَلَمْ أَزَلْ أَسْمَعُهُ يُكَبِّرُ، حَتَّى تَوَارَى عَنِّي، أَوْ خَفِيَ عَنِّي. رواه الطبراني في المعجم الكبير.[١]

(١) المعجم الكبير للطبراني (٧/ ٥٣).

سَل الله الهداية في أمورك كلِّها

﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٦٢﴾ [الشعراء: ٦٢]

قالها موسى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- بيقين عندما تبعه فرعون وجنوده وقد قال له بنو إسرائيل: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١﴾ [الشعراء: ٦١]، ففلق الله له طريقًا في البحر يمشي عليه كما يمشي على أرض يابسة، فكان بذلك نجاة أضعف البشر -وهم بنو إسرائيل- من أعتى البشر.

﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٦٢﴾ قالها موسى هنا، وقد دعا بها هناك في أول طريق السير إلى الله: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝٢٢﴾ [القصص: ٢٢] فقد ضلَّ الطريقَ المؤدّي إلى ديار مدين، فسأل الله أن يهديه ذلك الطريق، فهداه الله إليه، بل وهداه إلى ما هو أعظم منه! هداه إلى النبوة وخصّه بالتكليم، حتى سُمّي بالكليم.

قد تسأل الله شيئًا، فيعطيك أشياء هي أثمن وأعظم من مسألتك تلك.

سَل الله الهداية في أمورك كلِّها، واطمئنّ لإجابته في حينها.

قُل: ربِّ، اهدني سواء السبيل.

قُلها بيقين، فسيجعل الله لك عند البلاء طريق صبر، وعند النعماء طريق شكر، وعند الموعظة طريق ذِكْر، وعند التعلّم طريق فهَم، وعند التعليم طريق قبول، وعند الخصومات طريق سلامة.

سيجعل الله حياتك كلَّها طريقًا للجنة.

قلها وكأنّك ترى الفرج بعينيك، وكيف تظنّ أنّ الفَرَج بعيد!، وربُّك يقول: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: آية ١٨٦].

تأمّل: لم يقل: (إن ربّي سيهدين)، بل قال: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ السرّ في ﴿مَعِيَ﴾، فبمعيّة الله يكون النصر والهداية.

وشعورك بأن الله وحده معك يكفيك يقينًا أنه لن يُضيع دعاءك وحسن ظنّك به.

مسك: قـال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ادْعُـوا الله وَأَنْتُـمْ مُوقِنُـونَ بِالإِجَابَـةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الله لاَ يَسْـتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لاَهٍ**» رواه الترمذي.(١)

❋❋❋

(١) سنن الترمذي (٥/ ٣٩٤).

الجأ إلى الله وانظر ماذا سيعطيك

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص: ٢٢]

هنا دعا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ربَّه أن يهديه الطريق المؤدّي إلى ديار مدين، وهو لا يعرف طريقها!

تأمّل الآية التي قبلها: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القصص: ٢٠، ٢١]

خروجُ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكن مرتّبًا له، بل جاء فجأة، وجاء على خوف ووجل، ليس هناك وقت ليأخذ متاعه ويستعدّ لسفره، خرج وحيدًا طريدًا، يريد ديار مدين ليجد عندهم الأمان، فهذه بليّةٌ لحقته، والبليّة الأخرى أنه لا يعرف هذا الطريق فلذلك قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ أي الطريق السويّ الذي لا أضلّ فيه.

كانت هذه أمنيته أن ينجو من فرعون ويصل برّ الأمان.

فماذا كان؟

كان لـه مـن الله أحسـن طريـق وأعظـم توفيـق، دلّه على الطريق إليه، بعد أن دلّه على الطريق المؤدّي إلى مدين.

دلّه الله إلى طريق يوصله إلى تكليمه، طريق فيه أمان ليس في الدنيا من فرعون فحسـب، بل أمانٌ من كل شـيء في الدنيا، ومن كل شيء في الآخرة.

والأحـداث التـي كانت بين وصوله إلى ديـار مدين وبين تكليـم الله له لم تكـن أحداثًا جاءت محـض صدفة، بل كانت ترتيبًـا وتهيئة للوصول للطريق الأعظم، فتلـك المرأتان اللتان تذودان لتسـقيا من البئر أغنامهنّ، وعطفُه عليهنّ وسـقيه لهنّ، وتَولّيـه إلى الظلّ جائعًا فقيرًا، وعملُه لدى الشـيخ الكبير راعيًا أجيرًا، وتزوّجُه من إحدى ابنتيه، والليلة الشاتية وعدم وجود ما يوقدون به نارًا. كلّ هذه الأحوال والأماكن والسنوات التي مرّ بها موسـى لم تكن مصائب ولا عقوبات، بل تهيئات وتربيات، يُهيئـه الله ويُربّيـه مـن خلالهـا لينـال مرتبـة التكليـم، وتأمّل: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾ [طه: ٤١]

قـد يصنعـك الله بشـيء مـن المشـقّة تحتاج منـك صبرًا ليُخرج منك أشياء في نفسك وخُلُقك، أشياء لا ينبغي أن تكون معَك عندما يريـد الله أن يرفعَك، وتأمّل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤]، قـال شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة: «بالصبر واليقيـن تنال الإمامة في الدين»(١).

ومختصر الكلام، أن موسـى سـأل الله أمرًا يسيرًا، فأعطاه تعالى فضلًا كبيرًا.

لما أخبر رسـول الله الصحابـة أن الله لا يُضيع دعاء عباده قالوا له: إِذًا نُكْثِرُ، فقال رسـول الله: «اللهُ أَكْثَرُ»(٢)، أي: الله أكثرُ عطـاءً وأعظـم نوالًا، فـلا تُقصّـروا في الدعاء، واسـألوه وأنتم ترجونه أعظم الرجاء.

ومن لجأ إلى الله، فإن الله يهيئ له حاجته، بل ما هو خيرٌ له مما يظنّ أنه من حاجته.

---

(١) ذكرها ابن القيم عن شيخ الإسلام ابن تيمية. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/ ١٥٣).

(٢) مسند أحمد (١٧/ ٢١٤).

مسك: كان خروجه مفاجئًا، لا طعام ولا شراب ولا مال...، باختصار، خرج وليس معه شيء، ثم هيأ الله له كلّ شيء.

❋❋❋

المؤمن لا بدّ أن يقع عليه شيء من الابتلاء

﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢]

المؤمن لا بدّ أن يقع عليه شيء من الابتلاء، حتى يُعلَم صدقه في إيمانه، هل هو ممن يعبد الله على حَرْفٍ وطمعٍ في حظوظ دنيوية قد لا ينالها إلا بادّعائه الإيمان، أو أن إيمانه إيمان صدق، عنده استعداد أن يبيع كلّ ما له في الدنيا ليبقى له إيمانه.

وهناك معنى آخر للابتلاء أنقل لكم فحواه في الحوار التالي الذي حصل بيني وبين أحد المتابعين في تويتر على البريد الخاص، أنقله لكم كما هو في البريد.

السائل: السلام عليكم، دار موضوع بيني وبين شخص ملتزم، وقال لي: إن المؤمن دائمًا مبتلى، وكلما زاد إيمانه زاد بلاؤه.

وقرأنا موضوعًا في النت عن شيخ معروف أن المؤمن يزيد

عليه البلاء دائما، وهناك عبارة وهي (أكملهم إيمانًا أعظمهم بلاءً وأقلهم إيمانًا أخفّهم بلاءً)

وحديث الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما معناه (**أشد بلاء الأنبياء ثم الأمثل**).

والله يقول ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾ [الشورى: ٣٠]

يعني المصائب من الذنوب ثم قال: ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: ٣٠] هذا والشخص مذنب! فلماذا يُبتلى المؤمن؟

وأيضًا يقول سبحانه: ﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا ﴾ [طه: ١٢٤]

وأيضًا يقول سبحانه: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه: ١٢٣]

وقال سبحانه: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧]

وليس المقصود بتفسير الآية الأخيرة حياة الجنة، بل الدنيا.

فهل طاعة الله ورسوله سبب للمصائب؟

وهذا كله يتعارض مع حديث (**إن المؤمن مبتلى**)، لكن الواقع أن المؤمن دائما في بلاء، والرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كما هو معلوم لا ينطق عن الهوى.

الآن الناس في الإيمان ليسوا سواء فمنهم ضعيف الإيمان ومنهم القوي، فلماذا يُبتلى شديد الإيمان؟

هل معناه أن المسلم الملتزم مبتلى؟ والمسلم غير الملتزم مبتلى لكن بشكل خفيف؟

وهل جزائي إن آمنت وعبدت ربي أن ينزل عليّ البلاء؟ أعلم أن البلاء للتمحيص، لكن كلّ إنسان لا يريد البلاء في الدنيا.

أتمنى تأخذني على قدر عقلي وتشرح أو توضح لي الموضوع، فهل جزائي أني إذا التزمت يزيد عليّ البلاء!! وهل من سلك طريق الله يبتليه الله!!

انتهى سؤال السائل.

وقد جاءت الإجابة على النحو التالي:

قلت: هل أنت موظف؟

قال: نعم.

قلت: لو أن مديرك رشّحك لدورة مميّزة، وفيها مكافأة؛ لأنك موظف مميّز، هل توافق عليها؟

قال: أكيد، وبدون شك.

قلت: هل يُعقل أن تسأل مديرك السؤال التالي: لماذا ترشّحني وأنت ترى أن الدورة فيها تعب وسفر وغربة عن الأهل! وهل هذا جزاء تميّزي؟

هل هذا السؤال منطقي لو وجّهته لمديرك؟

قال: لا، غير منطقي، بالعكس هو يخدمني.

قلت: ومديرك أكيد أنه يعلم أنه يخدمك؛ لأنه يعرف تميّزك، وهو يغلب على ظنّه أن ما سوف تُحصّله من هذه الدورة من المصلحة ستكون أضعاف التعب الذي سيحصل لك.

فكيف بالعليم الخبير سبحانه!؛ فإن الله حينما يبتلي أولياءه إنما يصطفيهم لهذا الابتلاء؛ لأنه يعلم مدى صبرهم وماذا سيكون أجرهم؛ لأن هناك منازل في الجنة لا يبلغها بعض المؤمنين إلا بالصبر على البلاء.

أرجو أن تكون الفكرة وصلت.

قال: إي والله وصلت، وجزاك الله خيرًا...

مسك: عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: «**الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلاَؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ البَلاَءُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ**» رواه الترمذي[1]

***

(١) سنن الترمذي، أبوب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء (٤/ ١٧٩).

الحياة، والحيوان

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤]

سمّى الله هنا حياة الدنيا بالحياة، وسمّى حياة الآخرة بالحيوان؛ والحيوان أبلغ من الحياة؛ فهي على وزن فعلان الدالة على المبالغة.

ولماذا سُمّيت حياة الآخرة بالحيوان؟

لأن الأمر كما قال قتادة: «الحيوان: حياةٌ لا موت فيها»[1]، أي لا يموت فيها أهل الجنة، ولا أهل النار.

أخي، هي حياتان، حياتك هذه، وحياة الآخرة.

الحياة الأولى وُلِدت لتموت، والحياة الثانية ستُحيا فيها لتبقى، ولذلك سُمّيت الحياة الثانية بالحيوان.

يقول أهل الرياضيات: أي عدد تقسمه على ما لا نهاية (∞)، فإنه يساوي صفر.

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٩/ ٣٠٨٢).

حياتنـا الدنيا مهما بلغت فهي محدودة بعدد، وأما الآخرة فهي باقية للأبد، فلا نهاية لها.

إذًا فالحياة الدنيا بالنسـبة للحياة الآخرة لا تسـاوي شيئًا، هي صفر كما يقول أهل الرياضيات.

حياتك اليـوم إن كانت في طاعـة الله وإن لم تنسَ نصيبك من الدنيا، فستجعلك بعـد موتك في الـبرزخ مطمئنًّا لحياتك التي لا موت فيها.

فلا تُشـغلنّك الحيـاة الفانية عن الحيـاة الباقية لئلا تقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ٢٤﴾ [الفجر: ٢٤].

لا طمأنينة في هذه الحياة إلا إذا كنت تسير على صراط الله.

الحياة اليوم على الإسلام، حياةٌ في دار الحيوان بسلام.

والإيمان القائم على الحقّ، أَمانٌ دائمٌ في دار الحيوان.

من عـاش على الإسـلام، ومـات على الإيمان، فسـوف يُبعث وربُّه راضٍ عنه غير غضبان.

مسك: قال الفُضيل بن عياض: «لو كانت الدنيا مِن ذَهَبٍ يَفنـى، والآخرةُ مِن خَزَفٍ يَبقى لكان يَنبغـي لنا أنْ نختارَ خزفًا يبقى على ذَهَبٍ يفنى، فكيف وقد اخترنا خزفًا يفني على ذَهَبٍ يبقى!»[1].

***

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٢٠٧).

فرقٌ بين الانتظارين

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[السجدة: ٣٠]

ومثلها قول الله تعالى: ﴿قُلِ انتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٨]

يأمر الله رسوله ﷺ أنْ ينتظر، وهو سبحانه قبل ذلك مُنتظِر، ويخبرنا تعالى أن الكفّار ينتظرون، بل ويأمرهم بالانتظار، لكن ليس الانتظار كالانتظار!

الله ينتظر وهو عالمٌ بتفاصيل النّهايات.

ورسول الله ينتظر وهو مُوقنٌ بأنّ وعد الله آت.

والكفّار ينتظرون أوهامًا وخيالات.

ينتظرون برسول الله نوائب الدَّهر، والرَّسول ينتظر ما وعده الله مِن الغنيمة والنَّصر.

انتظارهم شكٌّ واضطراب، وانتظار رسول الله طمأنينة وعدم ارتياب.

انتظارهم معاندة، وانتظار رسول الله عبادة.

المؤمن مستيقن بوعد الله، ولذلك فالانتظار بالنسبة له ليس مضيعة وقت، حتى ولو لم يحصل ما ينتظره في الدنيا فهو ينتظر حصوله في الآخرة يقينًا؛ لأنّ الدنيا وقت انتظار، إنْ لم يأتِهِ ما ينتظره في الدنيا من وعد الله فهذا لأن الله جعل وقته أن يأتيه في الآخر أضعافًا مضاعفة.

وميزة أخرى لمجيئه له في الآخرة، فحصوله له هناك يتميّز عن حصوله في الدنيا أنّ ما يحصل له في الدنيا يفنى بفنائها، وما يحصل له في الآخرة يبقى ببقائها بدوامها.

وزيادة على ذلك فإنّ الانتظار عبادة.

مسك: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«سَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ، فَإِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ، وَأَفْضَلُ العِبَادَةِ انْتِظَارُ الفَرَجِ»** رواه الترمذي.[1]

***

(١) سنن الترمذي، كتاب الدعوات، باب انتظار الفرج (٥/ ٥٦٥).

الغفلة عن قوة الله سبب للقلق والاضطراب

﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]

قال ابن خلدون في إحدى مقدماته: «الاجتماع الإنسانيّ ضروريّ، ويعبّر الحكماء عن هذا بقولهم: الإنسان مدنيّ بالطّبع، أي لا بدّ له من الاجتماع الّذي هو المدينة في اصطلاحهم»[(١)].

وهذه الاجتماع والخُلطة إن كان المرء عاقلًا فستكسبه أصدقاء بررة، ومع هذا فلن يَسْلَمَ من أعداء فجرة؛ لأنه كما رزقك الله أصدقاء أوفياء فقد تُبلى بأعداء أقوياء.

التفكير في قوّة العدوّ، والغفلة عن قوة الله سبب للقلق والاضطراب، وهذا ما يريده الشيطان، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، أي يخوّفكم من أوليائه.

---

(١) تاريخ ابن خلدون (١/ ٥٤).

مهما كانت قوّتهم فعليك أن تتذكّر أن الله أقوى منهم، وأن الله لا يصلح عمل المفسـدين، ومهما مكـروا بعباده المؤمنين فإنّ مكرهم سيحلّ بهم وهم لا يشعرون.

كـن مطمئنّا في هذه القضية، فسـترى مصداق قول الواحد القهار: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]

ولـو أنك تأمّلت أحوال الماكريـن المعتدين لوجدت من الوقائع ما يزيد في قلبك اليقين.

فكم من ماكرٍ، إنما كان مكرُه سعيًا في الإضرار بنفسه.

تخيّـل أن أمامـك شاشـة وترى فيهـا نهاية مـن يمكر بك بعـد مدّة، فلا شـكّ أنه سـيهون عليك ما تراه مـن مكره الآن، وسيسهل عليك طول الانتظار؛ لأنك تعرف النهاية.

ولذلك فإن كنت مؤمنًا حقًّا فسوف تستيقن بمصداق هذه الآية، وتطمئنّ بما سـيؤول إليه حال الماكر أكثر من اطمئنانك فيما لو قُدّر أن أمامك تلك الشاشة.

وكما قيل: العبرة ليسـت بمن يضحك كثيـرًا، وإنما بمن يضحك أخيرًا.

وتأمّل الفرق بين هذين الضَّحِكَيْن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ (٣٢) وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ (٣٣) فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤)﴾ [المطففين: ٢٩ - ٣٤]

مسك: اِلْزَمْ هذا الدعاء، قال ابن عباس كان النبي ﷺ يدعو: «**رَبِّ أَعِنِّي وَلا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي وَلا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرِ الْهُدَى إِلَيَّ، وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ، رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَّارًا، لَكَ ذَكَّارًا، لَكَ رَهَّابًا، لَكَ مِطْوَاعًا، إِلَيْكَ مُخْبِتًا، لَكَ أَوَّاهًا مُنِيبًا، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَاهْدِ قَلْبِي وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ قَلْبِي**» رواه الإمام أحمد.(١)

❋❋❋

(١) مسند أحمد (٣/ ٤٥٢).

إذا قيل فيك ما ليس فيك

﴿ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [يس: ١٦]

في هـذه الحيـاة قد تُبتلى بمـن لا يخاف الله فيـك، فيطلق لسـانه تعمّدًا للإسـاءة إليك، تقصيرًا في التثبّـت مما قيل فيك، فيتّهمك بما يعلم اللهُ أنك بريءٌ منه.

وما أشـدّه على النفس أنْ يحرص المرء أنْ تكون سـيرتُه عطرةً وذكرُه حسـنًا، ويجتنب من مساوئ الأخلاق ما يجد أنه فيما بعد قد رُمِي بأحدها.

قد لا تجد سـبيلًا لدفع التُّهمة عنك، لكن لن تُعدم سـبيلًا في تخفيفِ وطأةِ الهمّ الذي حلّ بك من هذه التُّهمة.

فهاكَ أخي سـبيلًا يُسـلّيك ويقينًا يقوّيك، وهو أنْ تستيقن أنّ الله يعلم أنك لست كذلك.

وبقدر حبّك لله سـيكون هذا السـبيل مسـلّيًا لك ومخفّفًا عليك وقع هذه التهمة، فإن كان حبُّك لله قويًّا كان هذا السـبيل أعظم أثرًا عليك.

تخيّل أنك اتُّهمت عند الناس بأمر قبيح فصدّقوا تلك التهمة، وأبواك وهما أحبّ الناس إليك لم يُصدّقا بذلك؛ لأنهما واثقان فيك.

وتخيّل العكس، أنك اتُّهمت بشيء قبيح عند أمّك وأبيك فصدّقا ما قيل فيك، لكن الناس كذّبوا بتلك التهمة.

فلو خُيّرت بين الحالتين، فأيّهما تختار؟

ستختار الحالة الأولى؛ لأنه بقدر اهتمامك بالشخص يكون وقع تكذيبه لك وتصديقه في نفسك، وهل هناك أعظم من اهتمام المرء بأمّه وأبيه!

﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ القائلون هنا هم رسلٌ من رسُل الله، قال لهم قومهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [يس: ١٥]

الرُّسُل يقولون: نحن لا نهتمّ بتكذيبكم لنا ما دام أنّ الله يعلم صدقنا، ولماذا نهتمّ بكم ولا مكانة لكم في قلوبنا، لا سيما وأننا نعلم أن الضرّ والنفع من الله لا منكم!

ولاحظ أن الرسـل أصدق خلق الله، فإذا اتُّهمتُ أنا وأنت بالكذب فالأمر ليس ببعيد لأننا غير معصومين، ولكن الرسـل يُتَّهمـون بالكـذب وهم أصـدق النـاس! لكنهم كانـوا يُعزّون أنفسـهم ويُسـلّونها بقولهـم: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ١٦﴾ [يس: ١٦]

مسك: قال ابن عيينـة: «لَأنْ يقالَ فيك الشـرُّ وليس فيك، خيـرٌ من أنْ يقـال فيك الخير وهـو[١] فيك، ثـمّ تلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور: ١١]»[٢].

***

(١) (وهو) أي الشرّ. أي كون الشرّ ليس فيك خير مِن أن يُظنّ فيك الخير وليس فيك ذلك الخير لكن الشرّ فيك.

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ٢٨٤).

الطريق إلى الله لا يقاس بالمسافات

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٩٩﴾ [الصافات: ٩٩]

قالها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بعدما كذّبه قومه، وقد أقام عليهم الحجة، فأوقدوا له نارًا وألقوه فيها، فأنجاه الله منها.

قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٩٩﴾ قالها وهو وحيد طريد، فآواه الله بعد أن كان طريدًا، ووهب له إسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ بعد أن كان وحيدًا، وجعله إمام الموحّدين والحنفاء، وقد وصفه الله قبل ذلك بأنه أُمَّة وهو واحد؛ لأنه عمل ما تعمله الأُمّة مجتمعة.

واختاره الله من بين أنبيائه لبناء أعظم بيت في الأرض وهي كعبة الحنفاء، ثم بعد موته رفعه ليكون مجاورًا للبيت المعمور في السماء.

الذهاب إلى الله ذهابٌ إلى من بيده ملكوت كلّ شيء، ذهابٌ إلى اليقين بهدايةِ الله، الهداية إلى كلّ خير وطمأنينة.

تأمّل، قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ﴾ ولم يقل (إني سأذهب)، وفرق بين اسم الفاعل (ذاهب) والفعل (أذهب)؛ فاسم الفاعل دالٌّ على الثبوت والاستمرار، والفعل دالٌّ على التجدد والحدوث، (أذهب) قد يكون ذلك مرّة واحدة بينما (ذاهب) يدلّ على استمرار الفعل في الذهاب وتكرره.

وخذ هذا المثال في الفرق بين اسم الفاعل وبين الفعل، قال الله تعالى عن آدم: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ [طه: ١٢١] ولم ترد آية واحدة أنه كان عاصٍ بصيغة اسم الفاعل (عاصي)؛ لأن آدم لم يعصِ إلا تلك المرة، ولو كان يعصي كثيرًا لصحّ أن يقال: عاصٍ.

فإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أخبر أنه ﴿ذَاهِبٌ﴾ أي عازم على ذهاب طويل، مستمرّ فيه، لا ينقطع عنه.

والطريق إلى الله لا يقاس بالمسافات، وإنما بالأوقات، فمُدّته مُدّةُ بقائك في هذه الحياة، كما قال الله: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٩] أي حتى يأتيك الموت، قال الحسن البصري: «لا يكون لعمل المؤمن أجلٌ دون الموت»[١].

---

(١) مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار، للسلمان (٢/ ٢٨٣).

اذهبْ إلى الله وأنت على يقين بهدايته، لا تذهب لتجرّب؛ فالله لا يُجرَّب؛ لأنه لا يُجرَّبُ إلا من يُظنّ به العجز أو الكسل، وأما الله فهو القوي العزيز، الذي لا يُعجزه شيء، ولا يمتنع منه شيء، فهو الذي ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]

مسك: اذهب إلى الله وأبشر، فسوف تتحوّل المِحَنُ مِنَحًا، والبلايا عطايا.

***

الصبر على البلاء جزء من شكر نعم الله

﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ (٤٤)﴾ [ص: ٤٤]

إنـه أيـوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، الذي مسّـه الضـرّ سـنوات، لم يكن ابتـلاؤه في بدنـه فقط! بـل ابتـلاءٌ في مـوت أولاده، وابتلاءٌ في ذهاب أمواله، وابتلاءٌ في انفضاض الناس من حوله، وابتلاءٌ في إخراجه من قريته لتأذي الناس من مرضه، وابتلاءٌ في طول زمن الابتلاء، وابتلاءٌ أعظم من ذلك شماتةُ الأعداء.

يخبرنا الله هنا أنـه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قد تجاوز الاختبار، فنال تزكية الكبيـر المتعـال، ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ (٤٤)﴾، هـذه التزكيـة ثمنها صبر سـبع سـنوات، وهي والله تزكيـة عظيمة لو عُمّر العبد في البلاء عمره كلّه لينال هذه التزكية لما كانت قليلة.

لمّـا رأت امرأته طول مدّة بلائه جزعـت فبكت، قال لها: كم مكثنا في النعيم؟

قالت: سبعين سنة.

قال: فاصبري حتى نكون في البلاء سبعين سنة كما كنا في الرخاء سبعين سنة، ثم اجزعي.

قد يمرض الإنسان فيتسخّط فتكون مصيبته بتسخّطه أعظم من مصيبته بمرضه.

أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ينظر إلى أن الصبر جزء من شكر نِعم الله السابقة، ويرى أن الصبر والرضا أعظم ما يُطلب به الأجر والجزاء، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر: ١٠]، قال الأوزاعي: «ليس يُوزن لهم ولا يُكال، إنما يُغْرَف لهم غَرْفًا»[1].

المؤمن ينظر أن المرض رفعةٌ له وتكفيرٌ لسيئاته، ولذلك فهو يصبر ويحتسب، فكم من صابر على البلاء أكرمه الله بعظيم الجزاء في الدنيا قبل الآخرة.

المرض أحيانًا عافية لدينك، تصبر فتؤجر، وترضى فيرضى الله عنك.

وكم من مريض عوفي من مرضه فحمد الله على هذا

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٨٩).

المـرض الـذي أصلح من حاله في الدنيا مع مـا ادّخر الله له من الأجر في الآخرة.

عندمـا تمـرض انظـر للطف الله بـك في كثير من الأشـياء لتعلم أن المرض لم يأخذ منك كلّ شيء، وأعظمها دينك.

فهـذا عـروة بـن الزبيـر، لمّـا أَخـذت الآكلـة[1] في رجله تفسـدها، قـال لـه الأطبـاء: لا بدّ مـن قطع رجلك لئلا تفسـد بقية جسـمك، فطلبهـم أن يقطعوها وهو يصلـي، فتصبّر حتى قُطعـت، وكان له ابن اسـمه محمد، أحد أبنائه السـبعة، وكان يُلقّب بزين المواكب لحُسنه، دخل إسطبلًا فرفسته دابّة فمات، فجـاء المعزّون يعزّونه فظنّ أنهم يعزونه لفقد رجله، فلما أُخبر بمـوت ولده رفع رأسـه إلى السـماء فقال: وَعزَّتـك لَئِن كنتَ ابْتليـتَ لقد عافيـتَ وَلَئِن كنتَ قد أخذتَ لقـد أبقيتَ، أخذتَ واحدًا وأبقيتَ لي سِتَّة، وَأخذت طرفا وأبقيت ثَلَاثًا.[2]

صـدق والله، فـإنْ أخذ فقـد أبقـى، وإنْ ابتلـى فقد عافى، خذها قاعدة في كل مصيبة تطرقك.

---

(١) هو مرض يأكل اللحم، ويفسده، وهو ما يُعرف اليوم بالغرغرينا.

(٢) انظر الوافي بالوفيات (١٩/ ٣٦٢).

مسك: عـن جابر بن عبـد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال سـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَوَدُّ أَهْلُ العَافِيَةِ يَوْمَ القِيَامَةِ حِينَ يُعْطَى أَهْلُ البَلَاءِ الثَّوَابَ لَـوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ قُرِضَتْ فِـي الدُّنْيَا بِالمَقَارِيضِ**» رواه الترمذي.[1]

***

(١) سنن الترمذي، أبواب الزهد (٤/ ١٨١).

اخرُجْ من ضيق المعصية إلى سعة الطاعة

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر: ٥٣]

تأمّل ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾، مهما كانت معصيتك كبيرة، ومهما كانت ذنوبك كثيرة، فإن الله لن يتبرّأ منك، بل لا يزال يقول لك وللمسرفين: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾.

إخوة يوسف لما أرادوا أن يأخذوا معهم أخاهم بنيامين إلى العزيز - الذي هو يوسف - ليكتال معهم قالوا لأبيهم: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا﴾ [يوسف: ٦٣]، فلما اتُّهم بنيامين بالسرقة وهو ذنب واحد قالوا لأبيهم: ﴿إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ [يوسف: ٨١] لم يقولوا: (إن أخانا سرق) كما قالوا في الأولى ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا﴾ تبرؤوا منه -لفظًا- بذنب واحد!

والله لا يتبرأ منك حتى لو أسرفت بذنوب كأمثال الجبال، بل يناديك في جملة المسرفين بقوله: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾.

﴿ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾!

تأمّل، قال: ﴿أَسۡرَفُواْ﴾ ولم يقل: (أذنبوا)! الإسراف هو التمادي بالذنوب والإفراط فيها، ومع هذا يقول: لا تقنطوا، أي لا تيأسوا من رحمة الله.

رحمة الله التي وسعت كل شيء، تَسَعُ أيَّ ذنب، حتى ذنوبنا الكثيرة والكبيرة.

عندما يسرف المذنب على نفسه فإن أول ما يأتيه الشيطان فيقول: أين أنت وأين التوبة، فمثلك لا يتوب ولا يُتاب عليه، وكيف تتوب وأنت الذي فعلت كذا وكذا؟

الشيطان إذا نال منك هذه فلا يريد منك شيئًا بعدها؛ فقد أسْلَمَكَ لمهلكك.

ولذلك قال الله ليطرد عنك هذه الوسوسة: ﴿لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، ﴿جَمِيعًا﴾ كلّ الذنوب التي تخطر ببالك والتي لا تخطر ببالك مما قد لا يُتصوّر أن يفعله بشر.

ولكن هذا مشروط بالتوبة النصوح إلى الله تعالى، بأنْ تُقْبِل عليه وأنت صادق في توبتك، نادم على ما حصل منك، عازمٌ على ألّا تعود.

اطمئنّ، الله يقول لك: (يا عبدي) هذا وأنت مسرفٌ على نفسك بالذنوب! فكيف وأنت مقبلٌ عليه بالتوبة؟

تأمّل ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ و﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ و﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣)﴾ ثلاث جُمَل، كلّ جملة لوحدها كافية لنزع القنوط من الأفئدة، فكيف وهي في آية مجتمعة، وكيف وهي بـ﴿يَا عِبَادِيَ﴾ مفتتحة!

فيا من أسرف على نفسه، تأمّل كيف ناداك ربك باسم العبوديّة، وأضافك إلى نفسه العليّة، وذكّرك برحمته الجليّة

اخرُجْ من ضيق المعصية إلى سعة الطاعة.

وانتقل من قلق الخاتمة إلى طمأنينة المصير في الآخرة.

واستبدل صحبة الفاسقين برفقة الصالحين.

وكن في ظل الرحمة الباردة، واحذَر من وحشة القنوط الحارقة.

مسك: قال الله تعالى: «يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلاَ أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ

ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، وَلاَ أُبَالِي» رواه الترمذي.[1]

❊❊❊

(١) سنن الترمذي، أبوب الدعوات، باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذُكر من رحمة الله بعباده (٥/ ٤٤٠).

سينصر الله دينه

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١]

هـذا الهجوم الذي نراه على الإسـلام والمسـلمين، قدّره الله لبيـان متانـة هذا الديـن، ولإظهار كيف ينتصـر لدينه عباده الموحدون، ومن هو الموفّق الذي ينال شـرف الانتصار لدينه تعالى.

والله تعالـى ينصـر دينه وأوليـاءه بصور شـتّى، منها صور ظاهرة وصور خفيّة، ومن صور النصر الخفيّة الموت على هذا الدين وعدم الخضوع لترهيب المعتدين ولا لترغيب الماديّين.

وكيف يكون مثل ذلك نصرًا؟

يكـون نصرًا لمـا يحصل بسـببه إغاظة لقلـوب الكافرين والمنافقين، وبيان لمتانة هذا الدِّين.

بقاء الإنسـان على مبدئه والموت عليه يُعدّ نصرًا في عرف الناس، فكيف بالموت على دين الله! هو لا شكّ نصرٌ من الله.

تأمّـل، لـو قال الله: (سـننصر) لـكان ذلك وعـدًا محقّقًا، فكيـف وقد قال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ﴾ وهذا فيـه توكيد بأداتين، بإنّ، والقَسَـم الذي دلّـت عليه الـلام في قولـه: ﴿لَنَنصُرُ﴾ فتوالت المؤكِّدات على هذا الوعد العظيم.

ينبغي أن تعلم أنه ليس بالضرورة أن ترى نصر الله في الحياة الدنيـا! فهذا رسـول الله يقول الله لـه: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ۝٧٧﴾ [غافر: ٧٧] وقال: ﴿فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ ۝٤١ أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ ۝٤٢﴾ [الزخـرف: ٤١-٤٢] أخـبره الله أنه ناصره ثم يخبره بأنه قد لا يرى نصره له في حياته.

الدِّين سـينصره الله، لكن لا يُشـترط أن نرى ذلك النصر، ولكـن قد نرى جـزْءًا منه وهو بقاء أهله عليـه، وهذا يدلّ على بقائه، وبقاؤه دليل على نصرٍ قادمٍ له.

لا تقلـق على دين الله؛ فإن الله أخبرنا بأنه سـينصره وأهلَه لنطمئنّ بحصول النصر، وأَمَرنا بنصرة دينه للنال عظيم المثوبة والأجر.

ومهما تأخّر النصر وقد رآه البعض وحُجِب عن البعض إلّا أن الكل سيراه عين اليقين في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ۝٥١﴾.

لا تقل أين نصر الله ومتى نصر الله، فإن الله وعدنا بنصر دينه، ولم يعدنا بأن يراه كلّ واحد منا في الدنيا، فانتصر على الشيطان بيقينك التامّ أن الله ناصرٌ دينَه ومعزٌّ أولياءه.

مسك: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَيَبْلُغَنَّ هَـذَا الأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللهُ بِهِ الْكُفْرَ**» رواه الإمام أحمد.[1]

❁❁❁

(١) مسند أحمد (٢٨/ ١٥٥).

إيّاك أن تظنّ أن الله أهمل دعاءك

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]

أمـرك الله بالدعاء ووعـدك بالإجابة، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء: ١٢٢]

تأمّـل ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ﴾، لـم يقل: فسـوف أسـتجيب أو سأسـتجيب، بـل ولم يقـل: فأجبكم! لـم يجعل بيـن دعائك واسـتجابته أيَّ فاصل من فعل أو اسم أو حرف، فهو يستجيب لك بعد دعائك مباشرة، لكنه قد يؤخِّر حصول ما سألته لحكمة هو يعلمها، هو تعالى اسـتجاب، ومرسوم استجابته صدر بعد سؤالك، لكن التنفيذ قد يتأخّر.

وتأمّـل مرّة أخـرى ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ﴾، هـذه الجملة فيها ثلاث كلمـات (اُدعـوا)، و(يـاء) المتكَلِّم وهـو الله، وجواب الأمـر وهو ﴿أَسْتَجِبْ﴾ ففيها إشـارة إلى أنه ليـس بين دعائك وإجابتـه إلا أن تدعـو الله تعالى وحده، بحيـث لا تجعل بينك وبينه واسـطة أو أن تجعل بينك وبين إجابته دعاءً لأحد تسـأله



غيره، فكن في دعائك كذلك كما لم يجعل بين أمره لك بدعائه وبين استجابته لك كلمة فاصلة بينهما.

ادعُ الله، وأكثِرْ من دعائه وإن لم يحصل لك ما دعوت به في الحال، وإيّاك أن تظنّ أن الله أهمل دعاءك، فإنك إنْ ظننت أنّ الله أغفل دعوتك؛ لأنه لم يستجبها لك في الوقت الذي تريد فقد أسأت الظنّ به تعالى.

ادع الله وسيستجيب في الوقت الذي هو خيرٌ لك، في الوقت الذي لو اطّلعت على الغيب لدعوت ألّا يستجيب لك إلا في هذا الوقت.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ١٩﴾ [النور: ١٩].

مسك: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ، وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ، إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا» قَالُوا: إِذًا نُكْثِرُ، قَالَ: «اللهُ أَكْثَرُ»** رواه أحمد.[1]

(١) مسند أحمد ط الرسالة (١٧/ ٢١٣).

ابذُل السَّبب واعلم أن الله هو الرزاق

﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ [الشورى: ١٢]

مقاليد: خزائن. يبسط: يوسّع. يقْدِر: يُضيّق.

لله خزائن السموات والأرض، ينفق منها منذ خلق السموات والأرض، ولم تنقص خزائنه فضلًا عن أن تنفد، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إنَّ يَمينَ اللهِ مَلأى لاَ يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّموَاتِ وَالأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَنْقُصْ مَا فِي يَمينِهِ»**(١).

ولذلك فاعلم أن الله إذا منع شيئًا فليس خشيةً من أن تنقص خزائنه ولا أن ذلك بخلٌ منه، فإن هذا مِن اعتقاد اليهود في ربّهم.

إن الذي رزقك من غير مسألة قادرٌ على رزقك وأنت

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب ﴿ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ ﴾ [هود: ٧]، ﴿ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [التوبة: ١٢٩] (٩/ ١٢٤).

تسـأله، لكنه يُعطي لحكمة ويمنع لحكمة، فقد يكون في إجابة طلبك هلاكك، وفي منعه سـلامتك؛ فـالله يعلم وأنت لا تعلم، ولذلك ختم الله الآية بقوله: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ١٢﴾.

فاجعل سؤالك عبادة، وأملك رجاء، وكن شاكرًا لعطائه، راضيًـا بمنعه، وأبشـر بالطمأنينة والقناعة وهل يُـراد في الحياة أعظم من هاتين؟

ثم عِشْ في هذه الحياة وأنت موقنٌ باثنتين في شـأن الرزق: أنّ رزقـك لـن يأكله أحد غيرك، وأنّك لـن تموت قبل أنْ تأكل رزقك كلّه.

فلا تُنغّص على نفسـك بهَمّ طلب الرّزق، وابذُل السَّـبب، لكن إيّاك أنْ تُفسـد على نفسـك المتعة بمـا وصلك من رزق؛ لأنَك كنت تريد أكثر منه، فتفوّت على نفسك شكر ما وصلك، وتقع في عدم الرضا بما قُسِم لك، وتُفسد على نفسك الطمأنينةَ برزقٍ قد تكفّل الله لك به، فتُكَدِّر على نفسك بِهَمّ رزقِ يوم غد وبعده، وقد لا تدرك بقية يومك هذا.

مسك: قال الحسن البصري: «ابنَ آدم لا تَحمِلْ همَّ سنةٍ على يوم، كفى يومُك بما فيه، فإنْ تكن السَّنة من عمرك يأتِك اللهُ فيها برزقك، وإلّا تكن من عمرك فأراكَ تَطلبُ ما ليس لك»[1].

❋❋❋

(١) الزهد لابن أبي الدنيا (ص: ١٩٧).

العفو يرفع قدرك في الدنيا والآخرة

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشورى: ٤٠]

طُبِع الإنسان على الأَنَفَة والعِزّة وطلب الثأر لنفسه، ومِن ذلك أنه يدفع كلّ ما يُوحي إلى استضعافه، ويمنع جاهدًا من يستهين بِحِماه، ويصدّ من يجترئ على مكانته.

وأنت في الحياة لا يمكن أن تَسلَمَ مِن مخطئ في تصرّف تجاهك، أو مجترئ على مكانتك، أو مُعتدٍ على حقّك.

والكريم يأنف من هذا وذاك، والمؤمن لا يرتضي ذلك لنفسه قبل حدوثه، ولكن له شأن آخر بعد حصوله.

ومِن عدل الله إذا اعتدى عليك أحدٌ أنه تعالى جعل لك الحقّ في الاقتصاص وأخذ حقّك وافيًا، وذلك لا يُنقص من إيمانك شيئًا؛ لأن الإسلام لا يمنع أن يكون المرء عزيزًا في نفسه، آخذًا بحقّه، منتصرًا لشخصه ممن ظلمه، فقال تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ [الشورى: ٤١].

ومـع هذا فالقـرآن يربّي المؤمن على أنـه إنْ عفا عن حقّه وتجـاوز عمّن ظلمـه فإن ذلك لا يقـدح في مكانته، ولا يُنقص من قَـدْرِهِ، بل تزيده عـزّةً وترفعه مكانةً؛ لأنـه أعرض عن هذا المخطئ وأقبل على الله، وقد قال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا**»[1].

تأمّـل ﴿فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشـورى: ٤٠]، لم يقـل: (فأجره عنـد الله) أو (فأجره من الله) جاء بـ(على) الدالّة على الوجوب هنا، أي فأجره واجبٌ وحقٌّ لازم على الله.

قد تقول: وهل أحدٌ يُوجِبُ على الله شيئًا؟

فالجواب: لا!

إذًا، من الذي أوجبه، ولماذا أوجبه؟

فالجـواب: أن الـذي أوجبه هـو الله، أوجبه على نفسـه، أوجبـه تَفَضُّـلًا منه على عبـده وتكْرِمةً منه لعفـوه، وهو تعالى لو أخبر ووعد دون أن يُوجِب على نفسـه شـيئًا لصدق وأوفى؛ وهو أصدق قيلًا، وأحسن حديثًا، ومن حُسْن حديثه أنه في مقام

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع (٤/ ٢٠٠١).

الرحمة يخاطب عباده ويخبرهم بأسلوب يبعث على الطمأنينة والرغبة، فمثلًا أوجب رحمته على نفسه، فقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] وهذا الأسلوب يستعمله أهل الكرم من الناس في غير ما يجب عليهم، فهم يُوجبون على أنفسهم، ليس خوفًا من التقصير، ولكن لبيان الجدية والرغبة في الفعل، فيقول أحدهم لصاحب حاجة: أمرك عليّ، ولا يقول عندي. ويقول إذا أكرم أحدًا في مطعم مثلًا: حسابك عليّ، ونحو هذا. ولله المثل الأعلى.

وتأمّل قوله تعالى في خاتمة الآية: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، لمّا حثّ الله على العفو فإنه قد يقع في نفس أحد أن ذلك تخفيفٌ على الظالم أو عدم مؤاخذة له أو أن ذلك مدعاة لرفع قبح الظلم عنه، فأخبر الله أنه لا يحبّهم حتى لو عفونا عنهم، المقصود بالعفو أنت وليس الظالم، أنْ تعفو ليَعْظُمَ أجرُك، ويَرتفعَ قَدْرُك.

فالمؤمن الذي يعفو كأنه يقول لظالمه: أنا أتعامل في شأنك مع الكبير المتعال وليس مع الحقير المختال، وأستمدّ من قضيّتي معك العفو من الله حينما أعفو عنك، لا أنني أريد منك مقابلًا على العفو.

وأكثر ما يزعج المرء عند إرادة العفو: ماذا سيقول الناس عني، هل سيقولون ضعيف، مغلوب على أمره، ذليل، ليس عزيزًا...؟

يا أخي، دعهم يقولون ما يقولون، فسيكتب الله لك ما لا يعلمون.

ثم إن العفو مَدعاة للراحة وإغلاق ملفٍّ قد يُسبّب لك بعض القلق والإزعاج الذهني، وقد تقع عند طلب حقّ الانتصار في الزيادة على حقّك فتخرج من طلب العدل إلى الوقوع في الظلم، فبعد أن كنت مظلومًا صرت ظالمًا، قال الفضيل بن عياض: «إذا أتاك رجلٌ يَشكو إليك رجلًا، فقل: يا أخي اعفُ عنه؛ فإنّ العفو أقرب للتقوى. فإنْ قال: لا يَحتمل قلبي العفو ولكن أنتصر كما أمرني الله عَزَّوَجَلَّ، قل: فإنْ كنتَ تحسن تنتصر مِثْلًا بِمِثْل وإلّا فارجعْ إلى باب العفو، فإنّ باب العفو أوسع، فإنه من عفا وأصلح فأجره على الله، وصاحب العفو ينام الليل على فراشه، وصاحب الانتصار يُقلّب الأمور».[1]

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨/ ١١٢).

مسك: عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يُنَادِي مُنَادٍ: مَـنْ كَانَ أَجْرُهُ عَلَـى اللهِ فَلْيَدْخُلِ الْجَنَّـةَ، مَرَّتَيْنِ، فَيَقُومُ مَنْ عَفَا عَـنْ أَخِيهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]» رواه البيهقي[1].

***

(١) شعب الإيمان (١٠/ ٥٤٣).

النية الحسنة

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨﴾ [الفتح: ١٨]

لا تستهن بأعمال القلوب؛ فإنها أصل كلّ عمل صالح، وقد يكون فيها من الأجر ما لا يكون في العمل الظاهر.

وعندما يكون مقصدك حسنًا ونيّتك طيبة فانتظر الخير من الله.

ومِن أعظم الخير الذي ينزله الله على عباده هي هذه السكينة.

السكينة هي الطمأنينة والانشراح، ومن الطمأنينة أن يَطْمَئِنّ العبد بقرب عطاء الله، فيكون انتظاره انتظار شوق ولذّة، لا انتظار ملل ويأس.

ومن دلائل حلول السكينة حصول الصبر، والصبر لا يكون سكينة إلا إذا كان واسعًا يستوعب كلّ مصيبة، وهو من خير ما يُعطاه العبد المؤمن، كما قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«مَا أَعْطَى اللهُ أَحَدًا مِنْ عَطَاءٍ أَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ» رواه أبو داود[1].

هـذه الآية نزلت عقب صلح الحديبية بعد ما مُنِع الرسـول والمؤمنون من العمرة التي قصدوها في السـنة السادسة، وعلى إثرها جرى هذا الصلح المشهور.

لمّا علِـمَ اللهُ الصِّدقَ في قلوبهم أنزل سـكينته عليهم؛ لأنه كان هنـاك أمور حصلت في الصلح تُزلزل القلوب وربما بعثت علـى الريب والشـك، إلّا أن الصحابة امتثلوا أمر رسـول الله، وصدّقوه في وعده فأنزل الله سكينته عليهم.

ولمّا ترتّـب على هذا الصلح رجوعُ الصحابة إلى المدينة دون أن يعتمروا وفاتتهم غنيمة العمرة التي قصدوها، عوّضهم الله خيرًا، فأغنمهم خيبر وفتحها لهم، ثم اعتمروا في العام التالي بمـا تُعرف بعمرة القضاء، فنالوا غنيمة أجر العمرة وغنيمة فتح خيبر.

اعلـم أن الله لـن يضيـع صِدْقَـك ويقينـك والخيـر الذي ينطوي عليه قلبك.

(١) سنن أبي داود. كتاب الزكاة، باب الاستعفاف (٢/ ١٢٢).

واعلم أن كلَّ ما فاتك واحتسبته فإنّ الله سيدّخر لك ما هو خير منـه، قال الله تعالـى: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنفال: ٧٠]

وتأمّل قول الله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ فقد رتّب ثوابه لهم على علمه بما في قلوبهم، وهم لم يعملوا عملًا ظاهرًا، لئلا نستهين بأعمال القلوب والنوايا الطيبة، فلا تعجزنَّ عن النية الطيبة في العمل الصالح، فإنْ قُدِّر أنك عجزت عنه أو مُنعت منه أو لم تقدر عليه، فإنّ الله يعلم صدقك فيه، وسيثيبك عليه.

مسك: عن أبي كبشة الأنماري قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَثَلُ هَذِهِ الأُمَّةِ مَثَلُ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا وَعِلْمًا، فَهُوَ يَعْمَلُ بِهِ فِي مَالِهِ يُنْفِقُهُ فِي حَقِّهِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ عِلْمًا وَلَمْ يُؤْتِهِ مَالًا، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ مَالِ هَذَا، عَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ الَّذِي يَعْمَلُ» قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَهُمَا فِي الأَجْرِ سَوَاءٌ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا وَلَمْ يُؤْتِهِ عِلْمًا، فَهُوَ يَخْبِطُ فِيهِ يُنْفِقُهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ، وَرَجُلٌ لَمْ يُؤْتِهِ اللهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي مَالُ مِثْلُ هَذَا، عَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ الَّذِي يَعْمَلُ»**

قَالَ: قَالَ رَسُــولُ اللهِ ﷺ: «فَهُمَا فِي الْوِزْرِ سَــوَاءٌ» رواه الإمام أحمد.[1]

❋❋❋

(١) مسند أحمد (٢٩/ ٥٥٢).

يا ربّ، من هذا المزيد

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق: ٣٥]

في الدنيا ليس كلُّ ما تشاؤه[١] يكون، ولا كلّ ما يكون قد شئته، وكم من حزن يحلّ بأحدنا عندما لا يكون ما قد شاءه وأراده، وقد بذل له جُهده وأسباب تحصيله.

قيل لأعرابي: كيف تجدك؟ قال: أجدني أجد ما لا أشتهي، وأشتهي ما لا أجد.[٢]

وهذا الذي قاله الأعرابي قد يجده كل واحد منّا، ولكن المؤمن يتعزّى بهذه الآية ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ بأنه في الجنة سيكون كلّ ما يشاؤه وإذا حصل له في الجنة كلّ ما شاءه فكأنه

---

(١) في قواعد الإملاء مذهبان في كتابة الهمزة المتطرّفة إن اتصلت بضمير، فـ(يشاء) كما هنا، إما أن تكتبها كما لو لم يتصل بها الضمير، فتكتبها يشاءه، والمذهب الآخر أن تعامل الهمزة معاملة الهمزة المتوسطة، فتكتبها هنا يشاؤه؛ لأن الهمزة مضمومة وما قبلها ساكن.
ولعلّه مرّ بك في تطمينات هذا الكتاب كتابة (ملأه، وملئه، وملؤه) في اختلاف وجوه إعرابها، وذلك أخذًا بهذا المذهب.

(٢) البيان والتبيين (١/ ١٨٢).

لم يفته شيء في الدنيا مما شاءه ولم يكن.

أمانيك كلّها ستتحقّق في الجنة، فيا عبدَ الله، تمنَّ وتمنَّ حتى تنتهي أمانيك، ثم انتظر في هذه الدنيا، القليلة مدّتُها، فسوف تأتيك تلك الأماني وزيادة.

بل هناك نعيم في الجنة لن يخطر ببالك اليوم لتتمنّاه؛ لأنك لم ترَ جنسه ولا لونه في الدنيا، ولذلك قال الكريم: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝٣٥﴾.

وهذا المزيد أفضل مما تتمنّاه الآن، بل وأفضل مما تتمنّاه في الجنة، الله سيخبرك به حينئذ.

يا ربّ، مِن هذا المزيد.

مسك: قال رسول الله ﷺ: «**قَالَ اللهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَر**» رواه البخاري.[1]

❋❋❋

---

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (١١٨/٤).

رزقك في السماء

﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ [الذاريات: ٢٢]

هو باب في السماء ينزل منه رزقك، لن تصل له يد ظالم فيغلقه عنك، ولا يد حاسد فيمنعك منه، ولا يد سارق فيأخذه دونك.

كلّ ما ملّكك الله إيّاه فهو رزقك، وكل ما منعك الله منه فليس رزقًا لك.

عندما يقول الله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ [الذاريات: ٢٢] فهذا لتطمئنّ أنه محفوظ في أعظم خزينة، ليست خزينة بنك قد يتعرّض للسرقة، ولا خزينة في يد محتال قد يستحوذ عليه بالمكر.

ولذلك فاعلم أنّ رزقك الذي في السماء لن يأكله غيرك، ولن تموت قبل أن تستكمله، فاسعَ لطلبه وأنت مطمئن، واعبد ربك بهذا الاطمئنان، كما قال تعالى: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ﴾[العنكبوت: ١٧].

تأمّـل: ﴿عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾، فـإن الله لـم يخـبرك بذلك إلا لتـذلّ له وحده في طلب الرزق لا للخلق، فالله تعالى يريدك أن تكون عزيزًا به عندما تطلب الرزق منه وحده.

وتأمّـل، لـم يقـل: (فابتغـوا الرزق عنـد الله) وإنمـا قال: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ والفـرق بينهمـا أن التعبير الأول يفيد صحـة ابتغائه من عنـد الله ومن عند غيـره، وأمـا التعبير الثاني فمعنـاه لا تبتـغِ الرزق إلا من عنـد الله؛ لأن المقصود أن تكون عزيزًا عندما تطلبه من الله وحده، وهذا من كمال التوحيد.

عندمـا تتذلّـل لمخلـوق في طلبـك الـرزق فقـد ضعـف توحيدُك وعبادتُك لربّك.

الـذلّ في طلب الـرزق لا يكون إلا لله وحـده، وأما الناس فأسباب.

اطلـب الرزق واجتهد، فإن حصـل فذاك، وإن لم يحصل فلأنـه لم يكتب لك، المهـمّ أن تكون عزيزًا بـالله، وعزيزًا بين خلق الله، وأن يرزقك الله التذلّل له.

بهـذا الميزان سـتطلب الـرزق وأنت مطمئـن غير ملتفت لأحد إلا لله، وذلك بالتوكل عليه وطلب العون منه.

مسك: كان ابـن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يدعو بهذا الدعـاء: «اللَّهُمَّ قَنِّعْنِي بِمَا رَزَقْتَنِي، وَبَارِكْ لِي فِيهِ، وَاخْلُفْ عَلَيَّ كُلَّ غَائِبَةٍ بِخَيْرٍ» رواه البخاري في الأدب المفرد.[١]

❋❋❋

(١) الأدب المفرد (ص: ٢٣٧).

الهروب إلى الله هو النجاة

﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠]

كلّ شيء تخافه، تهرب منه إلى غيره إلا الله، فإنك تهرب منه إليـه، تهرب من غضبـه إلى رضاه، ومن عقوبتـه إلى عفوه، ومن عذابه إلى رحمته، ومن بُغضه إلى حبِّه، ومن ناره إلى جنّته.

الهروب إلى الله هو هروب إلى من سبقت رحمتُه غضبَه.

الفرار من الله خوفًا منه، والفرار إليه طمأنينة به.

ليس هناك خوف مرتبط بأمن كالخوف من الله، فإن خفته أمّنك يوم القيامة، بل وأمّنك في الدنيا.

قالت عائشـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فَقَدْتُ رَسُـولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةً مِـنَ الْفِرَاشِ فَالْتَمَسْـتُهُ فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى بَطْـنِ قَدَمَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَسْـجِدِ وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ وَهُوَ يَقُولُ: «اللهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَـخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ» رواه مسلم.(١)

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقول في الركوع والسجود (١/ ٣٥٢).

تأمّل قول رسـول الله: «**اللهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَـخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ**» الذي يرضى هو الله وهو الذي يسخط، والذي يعفو هو الله وهو الله الذي يعاقب.

عقوبتـه عدل، وعفـوه فضل، ولذلك فنحن نسـأل الله لنا فضله لا عدله.

«**أَعُـوذُ بِكَ مِنْكَ**» أهرب منك إليك، وقد جاء هذا المعنى في دعاء النوم: «**لاَ مَلْجَأَ وَلاَ مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ**»(١)

الفـرار مـن الله إليـه أن تعمل بطاعتـه خشـية عقوبته، أن تلتمس رضاه خشية سخطه.

الفرار من الله رُكْناه الأمن والخوف

الأمـن الحقيقـي وهـو أن تعلـم أنّ أَمْنـكَ عنـد مـن بيده عقوبتك.

والخوف النافـع هو الخوف ممن ينفعك الخوف منه ولا يضرّك، وهو الخوف ممن تشعر بالأمن معه.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب فضل من بات على الوضوء (١/ ٥٨).

مسك: قرأ الحسن البصري قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ [آل عمران: ٣٠] فقال: «مِن رَأفَتِه بهم حذَّرَهم نفسَه»[1]

❊❊❊

(١) تفسير عبد الرزاق (١/ ٣٨٧).

أعظم اجتماع عائلي

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ [الطور: ٢١]

احـرص على صـلاح نفسـك وإصلاحك ذرّيتـك، وكُن حسـن الظـنّ بالله في حُسـن العاقبـة؛ فإن الله يجمـع الأبناء مع الآبـاء في الجنة، حتـى وإن كان الأبناء أقـلَّ صلاحًا من الآباء، المهمّ أن يموتوا مؤمنين.

ومِـن رحمـة الله أنـه لا يُنقص مـن أجور الآباء شـيئًا عند ذلـك، كما قال: ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾، أي ما نقصناهم من عملهم من شيء.

انظر إلى ذرّيتك مِن حولك، فأنت تتمنّى وتسعى أن تجمعكم اللحظات السعيدة في الدنيا، وألّا تفرّق بينكم أيُّ مصيبة.

أليسـت الآخرة أحقَّ بهذا التمنّي وذلك السعي، لتجتمعوا في الجنة ولا تفرّق بينكم أعظم مصيبة، وهي النار؟

صلاحك ليس أن تسـعى لإصلاح نفسك وتنسى أهلك،

بل أن تسعى لإصلاح نفسك وإصلاح أهلك وذرّيتك، فأنت حينئذٍ صالح ومُصلِح، ولأنك سعيت في إصلاح ذرّيتك فإن الله يحقّق لك مبتغاك فيكونون معك في الجنة، وإن كانوا أقلّ منك عملًا، وهذا من فضل الله على عبده المؤمن لتقرّ عينه بذرّيته في الجنة، وذلك أعظم ما يسأله عباد الرحمن كما قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ [الفرقان: ٧٤]

كلّ اجتماعاتنا الأسريّة لا قيمة لها إن لم نحفظها من أيّ شيء يكون سببًا لفرقتنا وعدم اجتماعنا في الجنة.

ثم إن الرفعة للأبناء هنا لم تكن إلا ببركة عمل الآباء ودعائهم، وببركة إيمان الأبناء أيضًا؛ لأن الله لا يرفع الأبناء إلا إذا كانوا مؤمنين.

مسك: هناك رفعة أخرى، وهي أن يرتفع الآباءُ ببركة الأبناء: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ لَيَرْفَعُ الدَّرَجَةَ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ فِي الْجَنَّةِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَّى لِي هَذِهِ؟ فَيَقُولُ: بِاسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ**» رواه الإمام أحمد.[1]

---

(١) مسند أحمد (١٦/ ٣٥٧).

الحديث عن الذكريات

﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾
[الطور: ٢٨]

الحديث عن الذكريات الماضية ممتع وجميل، خاصة إن كانت تلك الذكريات سببًا لنجاحك في عمل ما، أو كانت سببًا في تحسين أمر مستقبلك، أو كانت ذكريات لطفولة بريئة.

وتكون الذكريات أكثر متعة عندما يتحدّث معك من شاركك فيها، فتتجاذبون أطراف الحديث، فكلٌّ يَذكر شيئًا، فيطرب الجليس مرّة إذا تحدّث، ويطرب أخرى إذا استمع، فلا يكون طوال مجلسه متحدّثًا لا يستمع، أو مستمعًا لا يتحدّث.

ولما كان الحديث عن الذّكريات مِن مُتع الدنيا جعله الله أيضًا مما يستمتع به أهل الجنة، فلن تسمع حديثًا أفخم ولا أصدق ولا أمتع مما ذكره الله عنهم في قوله تعالى: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الطور: ٢٥ - ٢٨]

نحن في حياتنا نصوّر اللحظات الجميلة لتكون ذكرى جميلة، نصوّرها في الدنيا لنتذكّرها في الدنيا، وقد نتذكّرها فتجلب لنا شيئًا من الحزن على أناس ذهبوا، أو على عمر مضى.

بعد توفّر هذه الأجهزة في أيدينا أصبح كلّ الناس مصوّرين، حتى رأيت عجائز وشيوخًا يحرصون على التقاط بعض اللحظات الجميلة في حياتهم ليتذكّروها! ومع هذا يأنسون بتلك الصورة وهم ينظرون إليها في وقتها قبل أن تكون ذكرى.

هذه الشهوة المغروسة في فِطَرنا لا تُستَنكر إن لم تتجاوز إلى حدّ البذخ والإسراف.

فإذا كانت الذكريات والحديث عنها مما طُبِعت عليه النفوس، أفلا نجعل للعمل الصالح الحظّ الأكبر منها، فنكثر من الطاعات لننال أجرها، فإذا دخلنا بسببها الجنة تذكّرناها أحسن ما يكون التذكّر، وتحدّثنا عنها أمتع ما يكون الحديث.

قـم وصـلّ ركعتيـن بإخـلاص وسـوف تتذكّرهـا، افتح المصحف واقرأ فسوف تتذكَر هذه الساعة، اخرج وابحث عن مسـكين وتصدّق عليه، اسأل مَن المريض من معارفك وعُده، تفقّد أخًا لـك في الله وزُره، كلّ هذه اِلْتِقاطات لأعمال تذكاريّة تتحدّث عنها أنت وإخوانك في الجنة.

عندمـا تصـوّر صـورة تذكاريـة فتعجبـك الزاويـة التـي التقطتهـا من خلالها، فتنظر في الصورة مرّة بعد مرّة مغتبطًا بها، وتظـنّ أنك قد لا تسـتطيع أن تصوّر مثلهـا أو أفضل منها، هذا الشـعور سيكون أجمل عندما تجاهد نفسك على طاعة قلّ من يعمـل بها، ثم تُسِـرّها، فـإذا فرغت منها حمدت الله أن يسّـرها لـك وخصّك بهـا من بين كثير مـن المقصّرين فيهـا، ثم تتذكّر أن الكـرام الكاتبين قد كتبوها لك في صحفهـم، وحينئذٍ تنتظر ذلـك اليـوم الذي ستُنشـر هذه الصحـف، فيظهـر عملك فيها بإخلاصك فيه وإخفائك له عن الناس.

تأمّـل: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ لا بـدّ أن تكون أعمالـك محفوفة بالخوف والشـفقة من عدم القبول، لا يأسًـا وقنوطًا، ولكن دفعًا للعجبِ والرياءِ واعتقادِ الكمال فيها.

قال إبراهيم التيمي: «ينبغي لمن لم يُشفِق أنْ يخاف ألّا يكون من أهل الجنة، لأنهم قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [الطور: ٢٦]»[1]

مسك: رُوِي عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**إذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ اشْتَاقُوا إلى إخوانهم، فَيَجِيءُ سَرِيرُ هَذَا حَتَّى يُحَاذِيَ سَرِيرَ هَذَا، فيتحدثان، فيتكئ هذا ويتكئ هذا، فيتحدثان بما كان فِي الدُّنْيَا، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِه: يَا فُلانُ تَدْرِي أَيَّ يَوْمٍ غفَرَ اللهُ لَنَا؟ يَوْمَ كُنَّا فِي مَوْضِعِ كَذَا وَكَذَا فَدَعَوْنَا الله فَغَفَرَ لَنَا**» رواه البزّار.[2]

❋❋❋

(١) الهم والحزن لابن أبي الدنيا (ص: ٣٩).
(٢) مسند البزار (١٣/ ٢٠٢).

أعظم مجلس

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القمر: ٥٤- ٥٥]

مَن منّا لا يطمع في الجلوس مع كبير ذي شأن يرتفع به في أعين الناس إذا جلس معه؟

ومَن منّا من لا يتمنّى أن يقعد مع محبوب يستغني به عن كلّ مجلس وجليس؟

ومَن منّا لا يتمنّى الجلوس مع صديق حميم يأنس بالجلوس معه من كلّ وحشة، ويُخفِّف عنه ثقل الحياة ومكابدتها؟

قد لا يجد أحدنا تلك المجالس، إما لشغل يمنعه، وإما لعدم الجليس المواتي، فيشعر حينئذٍ بالوحدة، وما أشدّ وحشة الوحدة!

عندما تعلم أنّك ستجلس مع من تتمنّى الجلوس معه والموعد قريب، فبالله كيف يكون شوقُك؟ وكيف سيكون استعدادك؟

أما الشوق فمحفوف بنشوة اللقاء، وأما الاستعداد فسوف تجتهد في العمل على كلّ ما يحقّق هذا المجلس ويأتي لك بذلك الجليس، وستحرص على البعد عن كلّ ما قد يصرفك عنهما، وحينئذ فأنت تشعر وأنت تنتظر أنك لست وحدك.

هكذا المؤمن عندما يُحسن الظنّ بربِّه بأنّ له مجلس كرامة عنده؛ إذ وفّقه للطاعة ويسّر له سبيل الهداية، فهو بإحسانه الظنّ بربه لا يشعر بالوحدة ولا وحشتها، ولن يحزن لعدم وجود من يجالسه ما دام أنه يجالس كلّ ما يحقق له ذلك المجلس العظيم عند الربِّ الكريم، فتلقاه يجالس كتاب الله، ويحبُّ مجالس الذّكر، ويبحث عن مواطن الصدق مع الله فيستوطنها، ويجالس أهلها، فإن لم يجد أهلها في واقعه، بحث عمن هم خير، فيقرأ في كتب السيرة وأخبار السلف، فيجالس بذلك العُبّاد والعلماء والزُّهاد، فيشعر وكأنه معهم، وكأن روحه تسبح في مجالسهم.

المؤمن في هذه الحياة يرتِّبُ لنفسه ذلك المجلس الأخروي أكثر من ترتيب أهل الدنيا لمجالسهم مع ملوكهم.

المؤمـن في هذه الحياة ينتظر ذلك المجلس وهو في أعلى درجات الشوق.

أعني بالمؤمن الصادق مع الله في كلّ شيء.

مسك: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)﴾ [القمر: ٥٤-٥٥]. قـال جعفر الصّـادق: «مدح الله المكان بالصِّدق، فلا يُقْعِد فيه إلّا أهلَ الصِّدق»[١].

❊❊❊

(١) تفسير الثعلبي (٩/ ١٧٤).

روح، وريحان

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ﴿٨٩﴾ ﴾

[الواقعة: ٨٨- ٨٩]

كلُّ الأشياء التي ننتظرها أو نؤمِّلها تبقى في دائرة الظنّ، النجاح، الزواج، الأولاد، المراحل العُمريّة من شباب إلى كهولة، ومن كهولة إلى شيخوخة.

كلّ المؤمّلين لا يستيقنون حصول آمالهم وإن بذلوا لها نفائس أموالهم.

اليقين الذي لا شكّ فيه مما سيحصل لابن آدم في مستقبله، هو الموت.

فلا يقين في حياتنا كالموت.

الموت ليس مرحلة عُمريّة قد لا تصلها، أو محطةٌ أنت فيها بالخيار تذهب إليها أو تتوقّف دونها، بل يقين لا ينتظر صغيرًا حتى يكبر، ولا مريضًا ليُشفى، ولا عَزبًا ليتزوج،

ولا دارسًا ليتخرّج.

كلّ الناس يخافون من الموت، وكلهم يفرّون منه.

القرآن يربّي المؤمن بأنه لا ينبغي له أن يخاف من الموت؛ لأن الموتِ للمؤمن فَرَج!

نعم، ألا ترى كيف قال الله: ﴿فَرَوْحٌ﴾ أي راحة واستراحة من الحياة الدنيا.

انتقـال المؤمـن من الدنيا إلـى الآخرة راحـة، والراحة لا تكـون إلا مـن ضِيق، والدنيا بالنسـبة للمؤمن ضِيـق، كما قال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الدُّنْيَا سِـجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ**» رواه مسلم.(١)

حُكِي أن سـهلًا الصعلوكي الفقيه الخراسـاني وكان ممن جمع رياسـة الدين والدنيا: أنـه كان في بعض مواكبه ذات يوم، إذ خرج عليه يهودي من حمام وهو بثياب دنسة وصفة نجسة، فقال: أنتم تزعمون أن نبيكم قال: «الدنيا سـجن المؤمن وجنة

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقاق (٤/ ٢٢٧٢).

الكافر» وأنا عبد كافر وترى حالي، وأنت مؤمن وترى حالك! فقال له سهل الصعلوكي على الفور: إذا صرتَ غداً إلى عذاب الله كانت هذه الدنيا الجنة لك، وإذا صرتُ أنا إلى النعيم ورضوان الله صارت هذه الدنيا سجني.[1]

قال محمد بن كعب القرظي في قوله: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾: «فَرَجٌ من الغمّ الذي كانوا فيه واستراحة من العمل، لا يُصلّون ولا يصومون»[2].

والرَّوْح لم يرد في القرآن إلا في موضعين، هذا الموضع، وفي قول يعقوب لبنيه: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: ٨٧] أي لا تيأسوا من فرج الله وتنفيسه.

ألا ترى كيف صار الموت تنفيسًا وفرجًا للمؤمن!

المؤمن في الدنيا كأنه في كَرْب يحتاج إلى فَرج.

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (٤/ ٣٩٩).

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٨/ ٣٧) «لا يُصلّون ولا يصومون» أي أنهم لا يُكلّفون في الجنة بصوم ولا صلاة.

لكن هذا الكرب لا يدرك المؤمن حقيقته إلا إذا انتقل منه إلى ذلك الـرَّوح والريحان، كالذي يعيـش في مرض منذ وُلِد، فلن يعرف حقيقة مرضه حتى يُجرّب العافية.

المؤمن عند ساعة الاحتضار يُبَشَّر بلقاء الله، فحينئذ يحبّ لقاء الله، فيسعد في تلك اللحظة، ويرى أن الموت على الإيمان أعظـم نعمـة، ولو قيل له: أتريـد أن نزيد في عمـرك؟ لقال: بل أريحوني من الدنيا لأرى فضل ربي.

وإذا تفكّـر المؤمـن في فتن الدنيا وخطرها علـى دِين العبد تمنّـى الموت على الدين قبل أن يُسـلبه، فإذا جـاء الموت وهو على الدِّين فقد تحقّقت أمنيته، وصار الموت خير غائب ينتظره.

مسك: قال رسـول الله ﷺ: «**مَـنْ أَحَبَّ لِقَـاءَ اللهِ أَحَـبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ**»، قال الراوي: **فَأَكَـبَّ الْقَـوْمُ يَبْكُونَ**، فقال الرسـول: «**مَـا يُبْكِيكُـمْ؟**» **فَقَالُوا: إِنَّـا نَكْرَهُ الْمَـوْتَ**، قَالَ: «**لَيْـسَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّـهُ إِذَا حَضَرَ:** ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الواقعـة: ٨٨-٨٩] **فَـإِذَا بُشِّـرَ بِذَلِكَ أَحَـبَّ لِقَـاءَ اللهِ، وَاللهُ لِلِقَائِهِ أَحَبُّ،**

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾﴾ [الواقعة: ٩٢-٩٣] فَإِذَا بُشِّرَ بِذَلِكَ يَكْرَهُ لِقَاءَ اللهِ، وَاللهُ لِلِقَائِهِ أَكْرَهُ» رواه الإمام أحمد.[1]

***

(١) مسند أحمد (٣٠/٢١٦).

أوسع المخارج

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢﴾ [الطلاق: ٢]

إذا أُصيب الإنسان بكُربة وحلّت به بليّة، نسي كلّ اهتماماته وهانت عنده كلّ رغباته؛ لأنه مشغول بالسبب الذي يخرجه من تلك الكُربة، والطريق الذي يوصله إلى السعة.

والمخرج مِن الضيق إلى السعة، ومِن الهمّ إلى الانشراح له أسباب، وأعظم تلك الأسباب تقوى الله.

والمخرج بتقوى الله ليس كأيّ مخرج، فهو أوسع المخارج وأكثرها طمأنينة ورضا.

المخرج بتقوى الله قد يأتيك في صورة صبرٍ يتّسعُ له الصدر، ويكون عليه عظيم الأجر.

قد يكون في مواساة تأتيك مِن موفّق أو صديق، فتنسى معها ما حلّ بك من ضيق.

قد يكون المخرج في شُغل يُبعدك عن التفكير بتلك المصيبة، ويقرِّبك من الله كلّ وقت.

قد يكـون في نعمة تملؤك سـعادة وطمأنينة، فتذوب معها تلك المصيبة.

باختصـار، المخرج ليس فيما تقترحه وتراه، بل فيما يُقدِّر ويختاره الله.

مسك: عن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جَعَلَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتلو هذه الآيـة ويُرَدِّدُهـا: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطـلاق: ٢-٣]، فقـال: «**يَا أَبَـا ذَرٍّ، لَوْ أَنَّ النَّاسَ أَخَذُوا بِهَا لَكَفَتْهُمْ**» رواه الحاكم.[1]

❋❋❋

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٥٣٤) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي.

من رحمة الحي القيّوم أنّ الهموم لا تدوم

﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾ [الطلاق: ٧]

هذه الآية من تلاها متدبّرًا لها فسيرى نور اليُسر في ظلمات العُسر.

تأمّل قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ﴾، وعدٌ لو كان من ملك من ملوك الدنيا لنام المهموم مطمئنًّا، فكيف بمن بيده ملكوت كلّ شيء، الذي إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون.

﴿سَيَجْعَلُ﴾ لم يقل (سوف يجعل)، وسوف والسين كلاهما وعدٌ بالمستقبل، لكن السين أقرب أجلًا وأعظم أملًا من سوف.

تأمّل هذه الآية، ثم اقرأ الآيات التالية:

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾.

﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ۝١﴾.

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ۝٤﴾.

هذه الآيات أكثر ما يردّدها الناس في التفاؤل، وهي جديرةٌ بأنْ يُتفاءل بها.

هل فكّرت أين وردت هذه الآيات؟

وردت كلُّها في سورة الطلاق!

مِن أقسى الأشياء التي تمرُّ على المرأة والرجل معًا، الطلاق.

الطلاق الذي هو كَسْرٌ للمرأة وحزن للرجل.

الهمّ الذي يلحق المرأة من جرّاء الطلاق همٌّ كبير، حتى لو كان الطلاق بطلبها، حتى لو رأت أنها سلِمت من هذا الرجل، يبقى الطلاق كسرًا لها وإنْ أظهرت خلاف ذلك.

وكذلك الرجل العادل، وإنْ رأى الطلاق حلًّا وقد اتّقى الله فيه فسيبقى قرارًا مؤلمًا.

هنا يكرّر الله معنى هذه الآيات بعدّة ألفاظ في عدة مناسبات في سورة واحدة، لتقرأها المطلَّقة والمُطَلِّق وغيرهما ممن ركبه الهمُّ والضِّيق، يقرؤون اليُسرَ والفَرَجَ وسعة الرزق

الموعود بـه فيطمئنّون، ويعلمون أنهم لـن ينتقلوا من حال إلا والحـال التي انتقلوا إليها خير لهم؛ لأنهم مسـتيقنون أن الله لا يُخيّب من اتَّقاه.

فاطمئـنّ يا مهموم؛ فإنّ مِن رحمة الحي القيّوم أنّ الهموم لا تدوم.

سـيجعل الله بعد الكَـرْبِ فَرَجًا، وبعد الهمِّ مُتَنفَّسًـا، وبعد الفُرقة اجتماعًا، وبعد الضِّيْق سَعَة، وبعد الظُّلْم اقْتِصاصًا، وبعد البلاء عافية، و ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ٧﴾ [الطلاق: ٧].

واحتسـب الهمّ الذي يُلِمُّ بك، فلعلّه كفّارة لذنب نسـيت التوبة منه، أو رفعة لدرجة في الجنة لا تبلغها إلا بالصبر إلا على مثـل هذا البـلاء، أو قد يكون صـدًّا لك عن أمر سـوء لو كنت مُنشـرحًا لأقدمت عليـه. وتذكّر قول رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عجبًا لأمر المؤمن إنّ أمرَه كلّه له خير**».

مسك: قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ٦﴾ [الشرح: ٥- ٦]: «لَوْ كَانَ

الْعُسْـرُ فِي جُحْرٍ لَتَبِعَهُ الْيُسْرُ، حَتَّى يَسْـتَخْرِجَهُ، لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ، لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ»[1]

❋❋❋

(١) تفسير عبد الرزاق (٣/ ٤٣٨) ومقصود ابن مسعود أن العُسر جاء مُعرَّفًا بأل في الآيتين، واليُسر جاء مُنكّرًا، فيكون العسر واحدًا، واليسر اثنين.

أعظم جِوار

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحريم: ١١]

إنها آسـية بنت مزاحم امرأة الطاغية فرعون، تشـتكي إلى الله فرعون وملأه الذين يعذبونها لتقول: فرعون ربّي.

يُعذّبونها لتعبد ربّ البيـت الذي تُعذّب فيه، ولهذا قالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ [سورة التحريم: آية ١١].

البيت الذي أنكرَ عِشرتَها لا تريده، تريد بيتًا في الجنة، يُبنى لها لحسن عملها وعظيم صبرها.

لم تقل: ربِّ ابنِ لي (بيتًا عندك في الجنة)! بل قالت: ربِّ ابنِ لي (عندك بيتًا في الجنة)، أتدري لماذا؟

لقد قدّمـتْ الجار على الـدَّار، سـألت الله أنْ تكون عنده تعالـى قبـل أنْ يكون لها بيت، المهمّ أن يكـون البيت عند الله،

ثم ليكُنْ أيّ بيت بعد ذلك.

تأمّل دعاءها، فقد طلبت القرب من الله قبل طلب النجاة من فرعون وملئه، قدّمت الظفر بالقرب الدائم على السلامة من الظلم المنقطع.

أيُّ طمأنينة هذه التي جعلتها تفطن لهذا الدعاء وبتلك الصيغة!

قال أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إن فرعون أوتَدَ لامرأته أربعة أوتاد في يديها ورجليها، فكان إذا تفرّقوا عنها ظلّلتها الملائكة، فقالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحريم: ١١]، فكشف لها عن بيتها في الجنة»[(١)].

أيُّ طمأنينة التي جعلتها تتحمّل العذاب المميت وتترك قصر فرعون المنيف، ذلك القصر الذي يتمنّى العيش فيه كلّ أحد في ذلك الزمن!

---

(١) رواه أبو يعلى في مسنده (١١/ ٣١٦).

لا عجب، فقد كانت همَّتُهم سُفليَّة، وكانت همَّتُها عُلويَّة.

مسك: حُرِمَت في الدُّنيا أنْ تكون جنّتُها في بيتها، فسألت ربّها أنْ يكون بيتُها في الجنَّة.

***

يومٌ عسير ويسير!

﴿ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ﴾

[المدثر: ٩-١٠]

هذا اليوم الذي كذّبوا به، ها هم فيه قد رأوه عين اليقين.

وكيف لا يكون يومًا عسيرًا عليهم وهم ينتظرون فصل القضاء خمسين ألف سنة!

ما أشدّ هذه الآية على الكافرين، إن اليوم العادي يطول جدًا على الخائف الذي ينتظر العقوبة، فكيف بخمسين ألف سنة!

إذا كان عسيرًا على الكافرين فهو -قطعًا- يسيرٌ على المؤمنين. هكذا يُتدبّر القرآن؛ فإن الله عندما يخبرنا أنه على الكافرين غير يسير، فهو يخبرنا في الوقت نفسه أنه على المؤمنين يسير، ولذلك تتسلّل الطمأنينة إلى قلب المؤمن وهو يتدبّر ﴿ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ﴾.

أهوال يوم القيامة وإن كانت عصيبة فسوف يُيَسّرها الله على المؤمنين، ويمنحهم من القوّة والصبر ما يُعينهم على

شدّتها، ويخفّف عليهم من طول مُدّتها.

المؤمن في ذلك اليوم تأتيه البشارات تلوَ البشارات، فيكون انتظارُه كمن ينتظر التكريم، لا العذاب الأليم.

أخي، أكْثِرْ من الصلاة كما أمرك الله: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، فإن الصلاة أكبرُ مُعين بعد الله على مصائب الدنيا والآخرة، أكثر منها حتى لو لم تُصَبْ بمصيبة في الدنيا؛ فقد تُصاب، ويقينًا ستحتاجها يوم الحساب.

المؤمن الذي يقف بين يدي الله كلّ يوم خمس مرات، سيُعينه الله بسببها على الوقوف في ذلك اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة.

مسك: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَوْمُ الْقِيَامَةِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كَقَدْرِ مَا بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ**» رواه الحاكم وصححه.[1]

❋❋❋

(١) المستدرك على الصحيحين، كتاب الإيمان (١/١٥٨).

وجوه يحبها الله ويكرمها

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩ ﴾ [عبس: ٣٨- ٣٩]

هـذه بعض صفات وجوه أهل الإيمـان في جنة الرضوان، فالله يحدّثنا عن الوجوه؛ لأن النعيم أول ما يظهر عليها.

﴿مُّسْفِرَةٌ ﴾ من الإسفار وهو النور الذي يظهر فيها، كإسفار الصباح عندما ينقشع منه الليل.

﴿ ضَاحِكَةٌ ﴾ أي أصحابها يضحكون، وهذا الضحك سببه ما علاهم من النعيم ووقر في قلوبهم من السرور.

﴿مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ الاستبشـار لا يكون إلا لأمر في المسـتقبل، فالمؤمنون وهم في الجنة يُبشَّـرون كلّ حيـن بنعيم لا ينتهي في مستقبلهم كلّه.

هـذا في الجنة، وجوه مسـفرة ضاحكة مستبشـرة، وأما في الدنيـا فقد تجـد وجوهًا، أصحابها أهل مصالـح وقتيّة، يكنّون لك احترامًا وتقديرًا، فما هي إلا وقد انتهت مصلحتهم وقضوا

حاجتهم، فإذا بوجوههم قد تغيّرت نحوك، فترى وجوها غير الوجوه التي كنت تعرفها، ترى وجوهًا مُكفهِرّة، فتندم على أيام قضيتها معهم، وتحزن على صفائك لهم.

فإذا رأيت ذلك فلا تُكثر الحزن والهمّ، فعمّا قليل يكون الانتقال إلى تلك الوجوه المسفرة التي تستحق أن يعمل المؤمن كثيرًا لكي يكون لأصحابها في الجنة رفيقًا، وحسُن أولئك رفيقًا.

نحن نأنس بذكر الله لأهل الجنة في القرآن؛ لأن ذِكرهم عزاء لنا من جفاء أهل الدنيا.

وننتظر أن يجمعنا الله بأهل تلك الوجوه عندما نرى وجوهًا علينا متغيّرة، وقلوبًا لنا جافية.

نتحابّ مع المؤمن؛ لأنه مؤمن وإن كان بعيدًا، ونتحاشى مجالسة الفاجر ونبغضه وإن كان لنا قريبًا، نُريد أن نُحشر مع المؤمن، ولا نعذّب مع الفاجر.

هذه الوجوه المسفرة هي الوجوه التي قال الله تعالى فيها: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣]

﴿نَّاضِرَةٌ﴾، أي ذات نضارة وهو البهاء والحسن والجمال، وهـي جميلـة وتنظر إلـى أجمل جميـل، تنظر إلى وجـه ربِّها الكريم.

مسك: قـال الحسـن البصـري: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ قَالَ: حَسَـنَةٌ، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ قَالَ تَنْظُـرُ إِلَى الْخَالِقِ، وحُقَّ لَهَا أَنْ تَنضُر[1] وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَى الْخَالِقِ».[2]

❀❀❀

(١) أي، وحُقّ لها أن تكون بهيّة وحسنة وجميلة.

(٢) تفسير ابن كثير (٨/ ٢٨٠).

ينبغي للمؤمن المظلوم ألّا يخشى من ضياع حقّه

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: ٤ – ٦]

من هم هؤلاء الذين تحدّث الله عنهم؟

إنهم الظلمة في الكيل والوزن، الذين يأخذون حقّوقهم وافية، ويعطون الناس حقّوقهم ناقصة، مع أن المكيال والميزان بين أيديهم.

قال الله في مطلع السورة: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ۝٣﴾ [المطففين: ١ – ٣]

تأمّل التعبير بالمطفّفين، التطفيف هنا هو الظلم في الكيل والوزن، والتطفيف مأخوذ من الشيء الطفيف، أي اليسر الذي يتقالّه الناس.

هنا يتوعّد الله هؤلاء المطففين بالويل والثبور، فكيف بمن يظلم الناس بالشيء الكثير؟

والويـل ليس لمن يظلم في الكيل والوزن فحسـب، بل في كل شيء، حتى الظلم في الأشياء المعنويّة.

عندما يتوعّد الله هؤلاء بالويل فينبغي للمؤمن المظلوم ألّا يخشـى من ضياع حقّه؛ لأنّ الله تولّى مظلمته، فحقّه لن يضيع، وسيأخذه المؤمن منه عند الاقتصاص خيرًا مما أُخذ منه.

ربما تُظلم في لحظة كرمشة عين، هذه ستُسجل وإنْ نسيها الظالم، فإذا بُعِث بقي في اليوم العظيم خمسين ألف سـنة قلقًا وَجِلًا كيف سيكون مصيره، وكيف سيُقتصّ منه!

مظلمـة في الدنيا في لحظة كرمشـة عين، قد تسـتهلك من الظالم خوفًا وقلقًا خمسين ألف سنة.

الظالم يتعامل مع وعيد الله بالاستخفاف أو النسيان.

والمؤمن يتعامل مع وعد الله بالتصديق والاطمئنان.

حقّـك المبخوس الـذي طفّفه هذا الظالم سـتأخذه خيرًا مما لو بقي بيدك في الدنيا.

تأمّل قول الله: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ٤﴾، ليخافوا عاقبة الظلم.

وأنت أيّها المظلوم، ألا تظنّ أنك مبعوث؟

ستقول: بلى.

إذًا فاطمئن لعاقبة مظلمتك.

مسك: أخي المظلوم، نَمْ قريرَ العين؛ فملفُّ قضيَّتِك عند أعدلِ الحاكمين... وغداً ﴿يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾.

***

الإكرام الحقيقي

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦ كَلَّا﴾

[الفجر: ١٥ - ١٧]

إذا أنعم الله على أحد من الناس فوسَّعَ عليه في دنياه فلا تجعل ذلك دليلًا على رضاه عنه وإكرامه له، وإذا ضيّق على آخر في رزقه فلا تظنّ أن الله قد أهانه؛ فإنّ هذه نظرة أهل الدنيا الذين لا يؤمنون بيوم الحساب، ولذلك انظر كيف قال الله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أي ليس الأمر كذلك، ولا ينبغي أن يكون الظنّ بالله هكذا، فقد يبتلي الله عبده بضيق الرزق ليصبر فيكرمه، وقد يجعل سعة الرزق للفاجر ليستدرجه فيهينه.

الميزان الحقيقي لحبّ الله ورضاه عن عبده من عدمه هو في عطيّة الدِّين لا في عطيَّة الدنيا، قال رسول الله: «**إِنَّ اللهَ** عَزَّوَجَلَّ **يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا لِمَنْ أَحَبَّ، فَمَنْ أَعْطَاهُ اللهُ الدِّينَ، فَقَدْ أَحَبَّهُ**».[1]

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٦/ ١٨٩).

أعظـم عطيَّة وغنيمة في هـذه الحياة أنْ يعطيك الله سـبب الحياة الحقيقية، وهو الدِّين.

أعظم حبٍّ في الدنيا والآخرة هو حبُّ الله لك، فإذا أعطاك الله الدِّيـن فقد نِلتَ هذا العطاء، ثم بعد ذلك لتذهب الدنيا وما فيها إلى الحُطام.

الخسارة ليسـت في ذهاب أشـياء من دنياك، بل في ذهاب أيّ شـيء مـن دينـك، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٦]

والتجـارة الرابحـة تكـون بتلاوة القـرآن وإقامـة الصلاة والنفقة في وجـوه الخير، كما قال الله تعال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [فاطر: ٢٩]

أخي، إنّ ما سـيعطيك الله على دينـك مِن الطمأنينة أعظم بكثير مما فاتك من دنياك المضطربة.

يقول رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «رَكْعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»(١) قيل: هما سنة الفجر، فإذا كان هذا في السنة فكيف بالفريضة!

---

(١) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب ركعتي سنة الفجر،=

لا يكفي أن تصلي هاتين الركعتين، بل ينبغي أن تستحضر أنهما خير من الدنيا وما فيها لتشعر بإكرام الله لك عندما أيقظك ويسّر لك هاتين الركعتين، وغيرُك يغطُّ في نومه أو يسرح في لهوه.

والكريم إذا أكرمه أحد فإنه سيسعى لردّ معروفه بإكرام مثله، والله تعالى لا يُردّ على معروفه إلا بالشكر والتزوّد من الصالحات، ولذلك أكثر من الشكر والعمل الصالح.

مسك: في قصة المؤمن وصاحب الجنّتين -المذكورة في سورة الكهف- قال صاحب الجنّتين للمؤمن: سِرْ بنا نصطدْ السمك، فمَن صاد أكثر فهو على حقّ.

فقال المؤمن: يا أخي، إنّ الدنيا أحقرُ عند الله مِن أنَ يَجعلَها ثوابًا لمُحسِن أو عقابًا لكافر.(١)

***

= والحث عليهما وتخفيفهما، والمحافظة عليهما، وبيان ما يستحب أن يقرأ فيهما (١/ ٥٠١)

(١) تفسير القرطبي (١٠/ ٤٠٠).

الحياة لا تصفو لأحد حتى المُنَعَّمين فيها

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾ [البلد: ٤]

هذه الحياة لا تصفو لأحد حتـى المُنَعَّمين فيها، فالمعافى يخشـى المـرض، والغنـي يخاف الفقـر، والمسـؤول يرتقب العزل، وكلّ إنسان يهرب من الموت.

فوطِّن نفسك على ما قد ينالك من كَدَرها: فقد يتجاهلك القريب، ويعرف قدرك البعيد.

وقد يخذلك الصديق، ويكون في عونك الغريب.

وقد تجد جفوة ممن لم يجد منك إلا الصفاء.

وقد تعاني مِن حسد القرناء، وبُهتان الأعداء.

وقد تسـمع ما يؤذيـك فتصمت فلا تجد إلا الاسـترجاع والحوقلة مُتنَفّسًا.

ومهما بلغ الإنسان في هذه الحياة من نَعماء فهو منها في عَناء.

قال الحسن البصري عند هذه الآية: «لا أعلمُ خَليقةً يُكابِدُ

مِن الأمر ما يُكابد هذا الإنسان»[1]

إذا أيقنـت بأن هذه هي الحيـاة، وأن هذه حال أهلها فيها، أمكنك أن تتصالح معها.

والتصالـح مع الحياة بهذه النّظرة تُخفّف عليك صدماتها، وتهوّن عليك همومها، وتقوّيك على القيام بأعبائها، وتساعدك على سرعة نسيان أحزانها.

عِـش في هـذه الحياة وأنت مؤمـن بأنه لا بدّ لـك فيها من مكابدة، وأنه لا راحة فيها دائمة.

وممـا يُخفّف منغصات هذه الحياة كثرةُ التأمّل والتفكّر، فإنّ لكل مُنغِّص تفكيرًا يُخفّـف ألمَه ويُصفّي كَدَرَه، فالهموم، فكِّرْ أنها في دنيا فانية لا تدوم، والظلم له يوم فصل لا ريب فيه، وكراهية ثقل الطاعة يُخفّفها أن الجنّة حُفّت بالمكاره، ومنازعة النفس عند ترك الشهوة يقمعها أن النار حُفّت بالشهوات.

واعلـم أن نظرتك للأشـياء على حقيقتها تسـاعدك على حسن التعامل معها؛ لأنّ كل ما سيأتيك منها أمر متوقّع لديك، يأتيك وقد أعددت العدّة المناسبة له.

---

(١) الزهد والرقائق لابن المبارك والزهد لنعيم بن حماد (١/ ٧٨).

بخلاف ما لو كان الإنسان يعتقد غير حقيقة الدنيا، وأن الأمور ستكون على ما يريد سالمةً من كلّ صعوبة، صافيةً من كلّ كدر.

فمن كانت نظرته للحياة هكذا فستكون صدماتها عليه أكبر، وآثارها على نفسه أكثر.

أرأيت لو كنت مسافرًا إلى بلد، فقيل لك: إن الخدمات جميعها متوفّرة فيها، وكلّها تَصِلُ إلى مكان إقامتك دون عناء، فلمّا وصلت لهذه البلدة وجدت أن الحقيقة ليست كذلك! بل لا بدّ لك من العناء لتوفير كلّ شيء، فالماء لابدّ من جلبه من البئر، ثم إنه يحتاج إلى تسخين، والخبز لا يحصل إلّا بعجن وفرن، والملابس تحتاج إلى أن تقوم بغسلها بنفسك... إلخ

أيّهما أيسر عليك: أن تُخبَر بحقيقة الواقع في هذه البلدة قبل أن تصل إليها، أو أن تُخبَر بخلاف الواقع ثم تكتشفه بعد وصولك لها؟

من أخبرك بخلاف الواقع سيجعلك تعيش مع الكَبَدِ كَبَدًا آخر، وعناءً أكثر، عناءٌ بَدَنيّ وعناءٌ نفسيّ!

وحتـى لا تعيـش هذا العنـاء في هذه الحيـاة، اعرفها على حقيقتهـا، ومن حقيقتهـا أنها دار ممرّ، لا دار مقرّ، وأن عيشـها عناءٌ وكَبَد، لا نعيم فيها إلى الأبد.

مسك: قيل للإمام أحمد: متى يجد العبد طعم الراحة؟

فقال: عند أوّل قَدَمٍ يَضعها في الجنّة.[1]

❊❊❊

(١) سلسلة علو الهمة، للمقدّم (١/ ١٤).

عطاء لا ينقطع

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾ [التين: ٦]

﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي غير مقطوع.

هـذه الآية يتضح معناها بذكر ما سبقها، قـال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾ [التين: ٤ - ٦]

أي خلقنا الإنسـان في أحسـن صورة، فـإذا كَبُر وهرم فقد رُدّ إلـى أرذل العمـر، وهو أسـفل مـا يكون من عمر الإنسـان ولذلك سُـمّي بأسـفل سـافلين، حيث يكون عالةً على أهله في تدبير شؤونه، حتى في قضاء الحاجة، وفي الغالب أن هذا العمر يصحبه خَرَفٌ في العقل فيُرفع عن صاحبه القلم.

إذًا فأرذل العمر لا يكون إلا عند الهَرَم، ومعلوم أن الشيخ الهَـرِم لا يتمكّن من كثير من الأعمـال التي كان يتمكّن منها في حال نشـاطه وشـبابه، وكثير ممـن يبلغ هذا العمـر يتبعه زوال العقل، وهو ما يُطلق عليه الخَرَف.

ومِن رحمة الله بعبده الهَرِم إذا كان ممن يعمل الصالحات، ثم عجز عنها في هذا العمر أن الله يُجري له أجر أعماله الصالحة التي كان يعملها وإن لم يَعُد يعملها بعد عجزه في هذا العمر، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾ أي غير مقطوع بكبر سنّهم أو زوال عقلهم وارتفاع التكليف عنهم، فتجري لهم أجور أعمالهم وهم لا يعملونها الآن، وتُرفع عنهم الأقلام فلا يُكتب عليهم ما يُعدّ من السيئات التي ربما يقترفونها وهم في هذا العمر بسبب فقد عقولهم.

ولذلك فإنه إذا جاء وقت صلاة والمؤمن في أرذل العمر لا يدري ما الصلاة ولا الوضوء، فإن الله يكتب له أجر الوضوء والصلاة.

وإن كان له ساعة في اليوم يذكر الله فيها، فجاءت هذه الساعة وهو حيٌّ، كتب الله له أجر ذلك الذكر كأنما يذكر الله الآن.

وإنْ جاء رمضان كتب الله له أجر الصيام، وهكذا في سائر الأعمال، ففضل الله واسع.

فاعمـل في حال صحتـك وحضور عقلك، وأبشـر بدوام عطـاء ربّك وفضله؛ فإنه لن يقطع عنـك أجر أعمالك إذا حال بينك وبين القيام بها مانع كهَرَم وسفر ومرض.

مسك: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا مَرِضَ العَبْدُ، أَوْ سَافَرَ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا**» رواه البخاري.[1]

❋❋❋

(١) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة (٤/ ٥٧).

خاتمة القرآن: المعوّذتان

افتُتِحت كلٌّ من سورة الفلق والناس بالاستعاذة بالله، فسورة الفلق افتُتِحت بقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ [الفلق: ١]

وافتُتِحت سورة الناس بثلاثة أسماء من أسماء الله تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ① مَلِكِ ٱلنَّاسِ ② إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ③ ﴾ [الناس: ١ - ٣]، الربّ، والملك، والإله.

الربّ: الذي خلقهم ودبّر أمرهم في الرزق والحياة والموت. والربّ هو السيّد.

الملك: الذي ملك ذواتهم وأرواحهم وحياتهم ومماتهم وكلّ شيء منهم وفيهم.

الإله: المعبود لهم طوعًا وكرها، فهو الذي يذلّ له المسلمون طوعًا بأفعالهم الاختيارية، ويذلّ له الكافرون كرهًا بما يجري عليهم من تدبيره وأقداره عليهم، فهم لا يستطيعون هربًا من أقدار الله ولا تدبيره.

الإنســان لا يســتعيذ إلا من المخاوف، وهــذه المخاوف تصغر كلما كان المستعاذ به أقدر على منعها من المستعيذ.

فكيف والمســتعاذ به هــو ربُّ هذه المخــاوف وخالقها، ومالكها وإلهها!

إن الذي تســتعيذ به يمنحك قوة وانشــراحًا لا يتحقّق مثله بغير هذا الطريق؛ لأنك تستعيذ بالعزيز الذي لا يُغلب، وتلتجئ إلى الذي يملك كلّ شيء، وتتذلّل للإله الذي لا ينبغي التضرّع والخضوع إلا له.

أنــت تســتعيذ بالله من كلّ شــيء تراه وممــا لا تراه: لأنك تعلم أن الله يرى كلّ شيء.

تســتعيذ بالله مما في نفســك، وهو فوق عرشه؛ لأنه أقرب إليك من نفسك.

ومن لطيف ما ذُكر في سـرّ الاستعاذة بصفة واحدة في سورة الفلق، والاســتعاذة بثلاث صفات في ســورة الناس، أن الشرور المســتعاذ منها في ســورة الفلق أقّل خطرًا من المســتعاذ منها في ســورة النــاس؛ فالشــرور في ســورة الفلق شــرورٌ ظاهــرة، وأما الشــرور في سورة الناس فشرور باطنة وهي تلك الوساوس التي

تهجم على الإنسان فلا يجد لها مدفعًا إلا بعون من الله وحده.[1]

ينبغي وأنت تقرأ هاتين السورتين أن تكون أكثر أمنًا من الطفل إذا حوته أمُّه في حجرها، وأرجى من الصبي الذي ينتظر أباه ليحضر له ما طلبه.

مسك: عن ابن عابس الجهني قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يَا ابْنَ عَابِس، أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَفْضَلِ مَا تَعَوَّذَ بِهِ الْمُتَعَوِّذُونَ؟**» **قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ الله، قَالَ:** «**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ، وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ**» رواه الإمام أحمد.[2]

❋❋❋

(١) هذه الفائدة قرأتها ولا أدري أين وقفت عليها، ولكنها من حيث الاستنباط صحيحة، ولذلك ذكرتها هنا.

(٢) مسند أحمد (٢٤/ ١٨٣).

الخاتمة

الحمد لله الذي يسّر كتابة ما تقدّم، وأشكره على إتمام إخراجه لك أخي القارئ، فما فيه من صواب فمن الله، وما كان فيه من خطأ فمن نفسي والشيطان.

ثم إني لأشكر لك قراءته والإفادة منه، وأرجو إن وقفتَ على ما فيه نفع أن تنشره لأشاركك الأجر، وإن وجدت فيه شيئًا ترى أن فيه خطأ يحتاج إلى تصويب، أو ملحظًا ينبغي فيه تنبيه ألّا تبخل عليّ بالإفادة؛ فالمؤمن مرآة أخيه.

أخوك: بندر بن سليم الشراري

١٤٤٢/٦/٢هـ

الرياض، حرسها الله.

للمراسلة:

واتساب أو تيليجرام: ٠٠٩٦٦٥٠٢٣٥٣٠٦٢

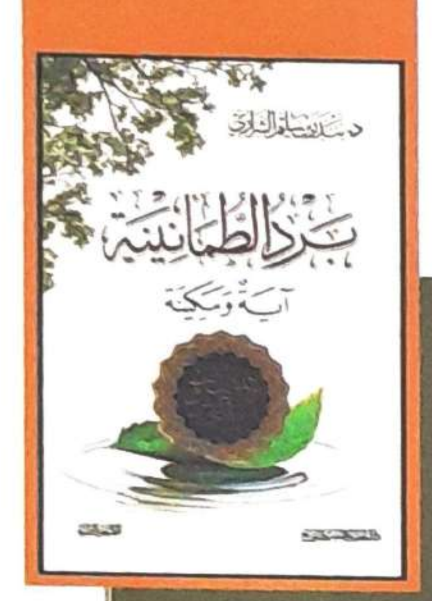
البريد الإلكتروني: drbandar1438@gmail.com

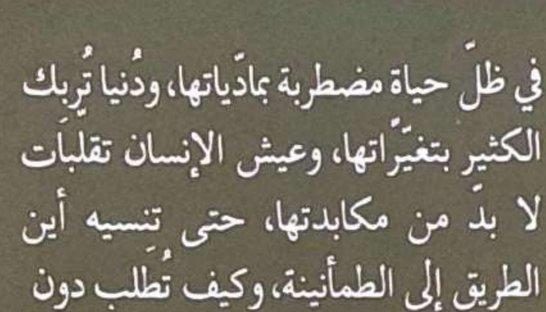
❁❁❁

الفهرس




التصميم الداخلي للكتاب
ثروت سلطان
Tharwat Sultan
TharwatSultan@yahoo.com
للتواصل:
00201019530152





في ظلّ حياة مضطربة بماديّاتها، ودُنيا تُربك الكثير بتغيّراتها، وعيش الإنسان تقلبات لا بدّ من مكابدتها، حتى تُنسيه أين الطريق إلى الطمأنينة، وكيف تُطلب دون أن يُغلب، وما الطريق للخلاص من حرّ الهموم، ولفح الغموم، وما في القلب من لظى الخوف من المستقبل المجهول - في ظل ذلك وغيره - جاءت فكرة هذا الكتاب ليكون بردًا وسلامًا على قلوب المهمومين، ونسيمًا حانيًا على أفئدة المحزونين، وبلسمًا شافيًا على جروح المنكسرين، وطمأنينة صادقة للناس أجمعين، هكذا أرجو من ربّ العالمين.

المؤلف

حسابات المؤلف في وسائل التواصل الاجتماعي



قناة التلجرام



حساب تويتر






القاهرة - أمام مسجد عليش - خلف جامع الأزهر
هاتف: 01111322668 - 01008584820
البريد الإلكتروني: elmarefa@hotmail.com

المملكة العربية السعودية - الرياض
daralhadarah@hotmail.com
الرقم الموحد: 920000908 الفاكس: 2702719 - 011
0551523173 @daralhadarah
زوروا متجر الحضارة
daralhadarah.net


9786038313640